الرواية الحائزة
على جائزة الطيب صالح
في الإبداع الروائي

محمد الخير حامد



دائرة الأبالسة

رواية

دار البشير

دائرة الأبالسة

رواية : محمد الخير حامد

***

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ / ٢٠٢٢ معدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقــم الإيـــداع: ٣٣٢١ / ٢٠٢١

الترقيم الدولي: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٢٧٨ - ٩٥٢ - ٨ :ISBN

التوزيع والنشر:

القاهرة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٠١٠١٢٣٥٥٧١٤ - ٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣

E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر.



***

هذه الرواية من نسج خيال الكاتب وتأليفه، ولا توجد أية علاقة بينها والواقع المعاش. وأي تشابه بين أحداثها، أو أشخاصها؛ مع أشخاص حقيقيين على أرض الواقع؛ أو أماكن ظنها البعض حقيقية؛ أو خطر لهم ذلك؛ فهو محض مصادفة لا أكثر.

***

***دنيا لا يملكها من يملكها..**

أغنى أهليها سادتها.. الفقراء..

الخاسر؛ من لم يأخذ منها ما تعطيه على استحياء

والغافل من ظن،

الأشياء..هي الأشياء..

محمد مفتاح الفيتوري*

الإهداء

***إلى الصديق العزيز (عبد المنعم الكُّـن)**

الذي كان مؤمناً بموهبتي في الحكي والقص ومثَّل بتشجيعه المتكرر، والمستمر لي؛ أهم الدوافع لكتابة هذا النص.*

- ١ -

ضميره يؤنِّبه بشدِّة؛ لأنه قام بفعلته الأخيرة ضد والدها وهي لا تعلم بما حدث. بريئةٌ هي، ولا تستحق أن تُعامل بهذه الطريقة القاسية، لكنه قدرها الذي لم تختره هي؛ ولم يكن له هو يدٌ فيه. والدها وزمرته هم مَنْ تسببوا في كل ما حدث.

ها هو الآن؛ ومنذ بداية علاقتهما العاطفية التي امتدت لسنوات؛ يجد نفسه لأول مرة، في حالةٍ لا تسمح له بالرد على مكالماتها الهاتفية. ما زالت تتصل، ينظر للاسم الظاهر على شاشة هاتفه الشخصي المحمول، يسمع رنتها الملحاحة، يتجاهلها في كل مرة، ويضغط على الزر الأيمن للجهاز مغيِّراً وضعه إلى الحالة الصامتة، ثم يزفر أنفاساً مكتومة، ويكتفي بعدها بالتحليق في سقف الغرفة التي يرقد على السرير الذي يتوسطها.

أزعجته رَنَّةِ الرسالة النصية العاشرة التي ترد إلى جواله منذ صباح اليوم. يدرك تماماً؛ أن كل الرسائل التي وردتْ ولم يفتحها ستكون منها هي.

آخيراً، يفتح هاتفه المحمول، يتأمل حروفها الباكية، ويقرر أن يرد.

أريج.. أنا بخير الحمد لله، كنت متعباً.. وكما تعلمين؛ اليوم عطلة.

كان من عادته أن يساهر مساء الخميس، يقضي جُلّ وقته في الإنترنت ومواقع التواصل والعمل على جهازه المحمول، ومشاهدة التلفاز، وإن فرغ من كل ذلك؛ قام بقراءة صحف الأسبوع التي لم تتح له فرصة الإطلاع عليها في وقتها، ثم يخلد إلى فراشه في وقتٍ متأخر من الليل، ربما يتجاوز موعد آذان الفجر. النوم عنده طقس مُتْعِب ومرهق بعد عناء ليل الخميس لدرجة أنه يجعله مضطراً ليبقى يوم الجمعة بالفراش حتى موعد الصلاة.

كان من الواجب في نظرها أن تأخذه الشفقة عليها، أو أن يُبدي لها شيئاً من الانزعاج.. اتصلت عليه كثيراً لتبليغه بالخبر، وعندما لم يرد على مهاتفاتها، ظنته نائماً؛ كما عوَّدها طوال علاقتهما، فأرسلت له رسالة نصية، واضطرت لتكرارها، ورغم ذلك لم يعْرها اهتمامه:

أعرف أنك في عِز مناماتك.. اتصلت كثيراً لتبليغك ولم ترد، والدي يرقد منذ الأمس بالمستشفى، وحالته سيئة جداً.

هو يعرف ما حدث، لأنه المتسبب في وصول والدها إلى هذه الحالة السيئة، كان يشعر بكل ما تحسّه. كأنه يراها الآن أمامه، لكن الأمر ليس بيده.

وبالرغم من ارتباكه، وتشكّكه في صحة تصرفه، وجدوى ما قام بفعله، إلا أنه أقنع نفسه بالمضي في هذا الاتجاه حتى النهاية. حاول جاهداً المحافظة على هدوئه واتزانه. تابع دواخله التي كانت تهتف مُحرِّضةً له، ومثيرةً لحميّة

القسوة فيه. وبعد أن تأكد من أن أمره قد أصبح محسوماً، ولم يعد يفرق معه في شيء؛ كتب الرسالة، وضغط على زر الإرسال بقوة.

صديقه حُسام حكى له كل التفاصيل التي حدثت بالمؤسسة. غضبة عادل مرحوم وصياحه، وانفجاره الأخير بوجه الموظف الذي وصفه بالمأفون وصاحب الفكرة التي قلبت مسار حياتهم رأساً على عقِب. ضحكات الشامتين وتندرهم بما حدث، ونهاية الحكاية التي لا يعرف تفاصيلها الحقيقية سوى قِلّة من الناس.

* * *

قابلها ذات شتاءٍ ما بمدخل المصعد بالمؤسسة، كانت زاهية، تنساب كروح بريئة في مهب نسائم الصباح على ندى الحقول. بدت له مُغترَّةً بجمالها، أو ربما بشيءٍ آخر لم يكن يدركه لحظتها. تلبس معطفاً من الفرو الأبيض، بينما تعوَّد – هو - أن يكتفي بلبس قميصٍ خفيفٍ دون الاستعانة بملابس شتوية، أو صوفية ثقيلة. فصل الشتاء عنده؛ هو الفترة الوحيدة التي تُشعِره بالاحتياج إلى الدفء والعواطف. فصلٌ يُدخله إلى عوالم التحليق والأمل، ويمنحه خيوط الهجرةِ البريئة نحو تلك العوالم البعيدة ذات الأنوثة الصاخبة النديّة، وروعة المناخ البارد الشفاف. أوربا التي طالما حلم بالسفر والدراسة بها.

كان شخصاً هادئاً ومتزناً. مُدركاً لوسامته التي يفتخر بها، ويعلم أنها في الحقيقة؛ أكثر ما يميزه لدى النساء. ومع أناقته المفرطة التي تحرجه أمام الكثير من الفتيات عندما يبُحن أمامه بإعجابهن.. ومعقوليته ما بين الطول والقصر، وكل هذه الصفات التي كانت تُضفي على شخصيته نوعاً من التوازن والقبول؛ أحس بسيطرته على الموقف؛ وفكّر أن يكون هذه المرة مغتنماً لفرصة انفراده بها داخل المصعد. حاول انتهاز اللحظة التي لن تتكرر، بعد أن عذّبته كثيراً بدخولها وخروجها المتواتر لبرج المؤسسة وعدم استطاعته الحديث معها.

دخلا سوياً غرفة المصعد الصغيرة. وأمام صمت مسافات صعوده، ولوحة الأرقام التي تدل على كثرة طوابق البرج الذي يضم المؤسسة التي يعمل بها، ألقى نظرته على ما تلبس من قطع صوفية حشدتها للدفء من لسع البرودة التي لا يكترث هو لها، وغامر بممازحتها:

يقولون إن النساء يشعرن بالبرد أكثر من الرجال، تعمد أن يرسل نظرة ذات مغزى إلى معطف الفرو الذي تلبسه وأكمل، *ويبدو لي أن هذا القول صحيحٌ...!!* لاحظ ارتباك نظرتها الأولى، وارتجاف قلبها لحظة تسرّب الحروف ما بين شفتيه وأذنيها.

ردتْ وفي صوتها دفءٌ وجاذبية أصابته بقشعريرة سحرية، تأثرت بها دواخله، وترنح بها صبره الذي لم يعد قادراً على تَحمُّل توهُّج واشتعال الحنين أكثر.

خالطت دفء عباراتها ببسمة عجولة منها، لم تبدد سطوتها قدسية الموقف:

كثيراً ما أحس بهذه الحقيقة فعلاً، وها أنت بما تلبسه تؤكدها لي أيضا..
قالتها مع نظراتها الخجولة متظاهرةً بالتجول حول ثنايا المصعد وجوانبه، مع التماعة نظرة الدلال الأولى التي عكستها مرايا المكان اللامع، وانثيال ذلك الترقب الشغوف خلسة وانتظارها لما يمكن أن يرد به من كلمات، بعد عبارتها التي فتحت أبواباً مشرعة لمواصلة الحوار.

لم يتمكن من الذهاب بعيداً في رحلة التَعرُّف إليها، لأن المصعد فاجأهما وأنهى حوارهما الذي تمنى كل منهما أن يطول أكثر. نظرت إليه بوداعة تعمدتْ أن تسكنها سويداء قلبه. استأذنته مع لحظة انفتاح الباب، ثم ودَّعته وخرجت بلُطفٍ يُشابه بوحها الحنين الهادئ.

اختفت بانسيابٍ حريريٍ وناعم. مضت إلى حيث تريد وتركت قلبه منهوكاً بها.

خرجت، لكن روحها البريئة لم تذهب معها.. تركتها وطارت مثل عصفورةٍ تغادر عشها صباحاً لتسرح في رياض الحياة، ولا تؤوب إلّا آخر المساء. تركت روحها وذهبت، ولابد أنها ظلت متغلغلةً بوجدانه تراود البقاء مرةً، وترفض الغياب ألف مرة.

لاحظ أنها ضغطت قبل صعودهما الأول بالمصعد على الرقم عشرة، بينما نزل هو بعدها في الطابق الرابع عشر.

صفَّق قلبه لتاريخ هذا اليوم المختلف. دوَّنه في مفكرة عاطفته التي تسرَّبت متدفقةً دونما اشتعالٍ حقيقي من قبل. ثم دلف إلى المكتب الذي يضمهما هو وزميله حسام الشيخ مع بعض الموظفين الآخرين.

- ٢ -

مشهد العربة المرسيدس، وأبوابها المفتوحة على مصراعيها، مع صوت مذياعها المرفوع لأعلى درجاته صادحاً بالموسيقى والأغاني؛ كان هو المشهد المألوف، والوضع الذي تعوَّد عليه مرتادو الشارع الذي تقبع به المؤسسة. حتى أنهم أدمنوا مشاهدته بهذه الصورة بشكلٍ دائم. لا يهنأ يونس بغسيل السيارات، ولا يستمتع بالعمل إلا وهو بهذا الشكل الممتع له كما يقول. يرفع صوت الموسيقى عالياً منتشياً ومردِّداً مع صوت المغنِّي كلما صَبّ شيئا إضافياً من مياه الغسيل على واجهة وزجاج السيارة. يدندن لنفسه بالأغنيات التي يحفظ جزءاً من كلماتها، ويضع مختاراته بذاكرة جهاز يحمله في جيبه ويتنقل به بين السيارات، فيهتاج المكان بموسيقاه العالية وأصوات مغنيين مختلفين. يفتخر أمام محدثيه بالشارع، والحي، ورفقاء المهنة، ويتباهى بنوعية الأغاني التي يبثها، فيستمتع بها كل الشارع. عامر صاحب الكافتريا المقابلة للمؤسسة يعبِّر له دائماً عن افتتانه بذوقه الجميل، ويشكره على المتعة السماعية التي يصنعها لكل مرتادي كافتريته. يفرح أكثر كلما أضاف له عبارات جديدة قالها أحد الزبائن مُعبِّراً عن استحسانه لمختاراته المحببة. كان مهووساً بالأغنيات الغربية أكثر مما عداها من الأغنيات، مُلِمَّاً بتفاصيل فناني الهيب هوب وأعمالهم، مغرماً بالموسيقيين العالميين المعروفين. يُعلق بضلفة دولابه المهترئ، بمنزلهم القابع بأطراف المدينة، صوراً لنجوم فن السينما بهوليود، ومشاهير الفن الأمريكي. وبالرغم من عدم إكماله لمراحل التعليم المتقدمة إلا أنه كان من الأذكياء في التعامل مع الحواسيب. بارعٌ في الحديث عن مستجدات التقنية الحديثة، وكل ما هو مُبهر وتقني. هاوٍ، وماهر في التعامل مع تطبيقات وبرامج الجوالات والهواتف. كثيراً ما تشاهده يتوقف عن العمل في غسيل إحدى السيارات ليعالج مشكلةً ما بجوال أو حاسوب زميل آخر، أو جار من جيرانه. ينجح في معالجة أعطالها في ثوانٍ معدودات، وبلا أدنى تعب. أتى هو للمهنة الخطأ مثلما يقول عنه الكثيرون لكنه لا يبالي بقولهم، ويعمل بجد واجتهاد، ويغسل معظم السيارات بشارع المؤسسة. لم يكن من قاطني المدينة القدامى وإنما قذفت به الحروب الدائرة في أرياف البلاد إلى العاصمة مثل الكثيرين، والْتَهمه صراع الحياة الصاخب بها. لكنه تواءم مع ضجة المدينة وصخبها، فأصبح رمزاً من رموز هذا الشارع. التقى والده بوالدته في فترة الحرب وتزوَّج بها بعد زوجته الأولى دون موافقة أهله، فخلق ذلك قطيعة تسببت في الشرخ الذي ما زال بينه وأخوانه من زوجة أبيه الأخرى. تختلف ملامحه عن بقية إخوته، هو مفتول العضلات، وقوي الجسم، فاحم اللون، مجعَّد شعر الرأس، كبير الأنف والفم. لعله كان الوحيد الذي يشابه أمه من بين إخوته، أما بقية الأبناء بالأسرة فقد أخذوا معظم صفات والدهم.

كانت المرسيدس مفتوحةَ الأبوابِ، ولا زالت صادحة بموسيقاها الصاخبة،

عندما مَرّ صديقه حسن فَكّة خارجاً لجلب ساندوتشات الطعمية والبيرقر والشاورما لإفطار الموظفين بالمؤسسة. وحينما لمح يونس حاول التخفّي متجنباً رؤيته له. لكن يونس لمحه فجأة بين السيارات البعيدة وصاح فيه مُذَكِّراً إياه بعهدٍ سابقٍ بينهما:

*حسن فكة.. ما الذي حدث بشأن الموضوع الذي بيننا؟؟..

قذف بالعبارة كالقنبلة المتفجِّرة، وأدخل حسن فَكَّة المتفاجيء بالهجوم؛ في حالةٍ تشابه إحساس مراهقة تفاجأت بأول قُبلةٍ تنالها من عاشقٍ ولهان. قال يونس جملته ليشعر حسن بأنه لا يقبل إلا برَدٍ حاسمٍ وأخير..

انتظرتك يا حسن.. ولم ترجع لي بأية نتيجة حتى الآن!!..

كان حسن مستعجلاً، وحتى يخرج من موقفه المُحرج، وما قُوبل به من هجوم. رفع يده اليمنى التي تتغطى بياقة البدلة السفاري في جزئها العلوي فقط، وأشار ليونس بحركة تعني التريث والاطمئنان:

الصبر.. الصبر طيب يا صديقي.. يحصل خير بإذن الله..، وغمز له بإحدى عينيه.

لم يكن كلامه مُقنعاً. ومن المؤكد أن يونس لن يصدقه حتى يثبت له العكس، لكنه رد بحديث طيب هو الآخر، وقال:

جميل يا حبيب.. سنصبر مرة أخرى..

كان حسن شخصاً عادياً بالنسبة له، مثله مثل أي شخص من العاملين بالمؤسسة، أو أولئك الذين يتواجدون بالشارع يومياً. لكن بمرور الأيام؛ أحس بإمكانية الاستفادة منه، أو بالأحرى شَعر بأنه يحتاجه، ويمكنه مصادقته لأنه شخص مهم بالنسبة للمدير العام. وكثيراً ما لاحظ أن ما يقوله حسن فَكّة للناس، أو يصرِّح به في أحاديثه العابرة؛ كان يصبح حقيقة ماثلة بمرور الأيام، بل وتتكشف تفاصيله، أو يحدث كما قاله هو بالتفصيل. كله، أو بعضاً منه، وكما رواه أمام الجميع. لذا فهو الشخصية التي كان يبحث عنها.

***

في نفس هذا اليوم، وقبل سنوات.. دخل هو إلى المؤسسة..

كانت الساعة تُشير إلى التاسعة صباحاً، عندما رن جرس الهاتف الداخلي بمكتب سكرتارية المدير العام. بدا المكتب محتشداً بمختلف الشبان والشابات الطامحين للحصول على مقعدٍ بالمؤسسة المرموقة. يحدوهم جميعاً أمل الدخول إلى متنفس الوظيفة في بلد تَنْدُر فيه فرص العمل ويقل به الإنتاج وإعلانات الوظائف. كان كل منهم يحمل آمالاً وطموحات، ويغزل همومه لوحده. منهم من يبحث عن تحسين وضعه المادي بالراتب المعقول، ومنهم من ينشد مواصلة الدراسة والتأهيل بعد التوظيف. أما هو فقد كان

يحلم بمستقبلٍ واعد، وتحقيق أحلام عائلته التي تنتظره بعد أن انتقلت في السنوات الأخيرة من الريف إلى العاصمة وسكنت في طرف المدينة الكبيرة التي تكاد تلفظ أنفاسها من كثرة الضغط على خدماتها. سحبته تأملاته إلى والده ووالدته اللذيْن ينتظران منه تحقيق تطلعاتهما في بناء منزل كبير يضم أسرتهم الصغيرة، ويكون ملاذاً آمناً لكل القادمين من منطقتهم الريفية إلى المدينة. خالاته وعماته، وأبناء شقيقاته الكثر، الذين ينتظرونه أيضاً لتغيير واقعهم البائس. تنبه كثيراً إلى افتتانهم به تفطّن إلى أنهم كلهم كانوا واقعيين ولم يكونوا حالمين، جعلوه فارس أحلامهم، لأن نبوغه، وتفاؤله، وزرعه للآمال في دواخلهم، كان سبباً مقنعاً وأملاً يستحق الانتظار. وها هو سيبدأ بعد قليل أولى خطوات الترقي في دروب الحياة والعمل.

انتبهت السكرتيرة وداد من انشغالها ببعض الأوراق المكدسة أمامها، وردَّتْ على الهاتف الداخلي بعبارات هادئة. لكن نبْرتها في الرد على محدثها وشتْ بطبيعة المحادثة، وكانت كافية ليسمعها جميع من بالمكتب:

مرحبا...

انتظرت بُرهة لتسمع محدثها من الطرف الآخر ثم أجابت على ما يقول في هدوءٍ واحترام..

نعم كلهم معنا بالمكتب..

ولم تلبث سوى ثوانٍ معدودة، حتى أنزلت سماعة الهاتف من أذنها، ثم نادت باسم أحد الحاضرين ليكون أول الداخلين للمعاينة النهائية ومقابلة المدير العام.

انتظَروا قليلاً حتى نادتْ على ثان، ثم تبعه ثالث، ورابع. كانت توزع الفرص بين الجنسين باحترافية وخبرة من له سنوات في المكان، حتى جاءت اللحظة التي نطقتْ فيها بصوتها الأنثوي العَذْب، وقالت:

عاصم مامون الرشيد..

هَب من مكانه بعد سماعه لاسمه الذي اكتسب طعما جديداً على شفاه السكرتيرة الأنيقة. وهَم بالحديث معها، لكنها؛ وبقرارٍ صامت وحاسم، ألقتْ نظرة سريعة إلى ساعتها، ثم نقلت بعض البيانات من جهاز الحاسوب الذي على مكتبها، وكتبتها على الأوراق التي أمامها، وسلمتها له مع إشارتها له بالدخول دون أن تمنحه فرصة الأخذ أو الرد.

بدا له مكتب المدير العام لحظتها مدهشاً وكبيراً، عتيقاً كعوالم ألف ليلة وليلة، وخطر له خاطر التجول بعينيه سريعاً قبل الوصول إلى الكرسي المخصص لجلوس الضيوف، كان المكتب فسيحاً، جدرانه عالية، وُضِعت على مناضده الزجاجية زهرات من البلاستك، وبعض أشكال الخزف الجميل. كان

كل شيء بالمكتب مختلفاً عن الذي يجاوره في شكله ونقوشه وحجمه. المناضد الزجاجية اللامعة. الطاولات الفخمة الموزّعة بعنايةٍ ودقةٍ فائقة. تبدو هنالك جلسة للاجتماعات الداخلية أو الطارئة، وهنا قريبا من مجلسه وُضعت كراسي مذهبة الأطراف للضيوف والجلساء القادمين، وأمام منضدته الكبيرة الفخمة كُرْسيان في وسطهما منضدة صغيرة عليها آنية منقوشة بحرفية تُحسد عليها يد الصانع، مليئة بالحلويات والمكسرات والتمور. كان الرجل يجلس خلف مكتبه بخبث تراءى له منذ الوهلة الأولى. خطا عاصم نحوه بتلهفٍ ظاهر، حاملاً معه قمم تطلعاته وأحلامه، وآمال عائلته. وكأنما هو متجهٌ نحو مجده المنتظر؛ تدافعت الخواطر على مخيلته وأخذ عقله في العمل، وحفزته رؤيته للمكتب الفخيم للإبحار في عالمه الخاص. تراءت له صورته وهو جالس بنفس المكان والكرسي يوماً ما.. تذكر أنه لم يدخل من قبل مكتباً من مكاتب الشخصيات التي يظنها مهمة. ضحك على بساطته التي جعلته يرفع من شأن المكتب الذي هو به الان دون أية أسبابٍ منطقية، أو مقارنة حقيقية. نظر إلى الرجل الذي يجلس خلف الطاولة الفخيمة. كان أنيقاً ومهندماً ببدلته الرمادية هادئة اللون، وربطة عنقه التي بدت متناسقة مع ما يلبس. قصير شعر الرأس، حليقه. وكذا بدت ذقنه. لاحظ كثرة الشيب الظاهر أعلى أذنيه. كاد يظن أنه بلا شارب؛ من شدة ما اجتهد في تقصير وحلق ما فوق شفتيه وتحت أنفه. لكنه وأد ظنونه وانتبه إلى حقيقة وجود شارب كثيف للرجل لكنه مقصّر بقسوة. لم يحْكوا له عن كيفية وصوله إلى هذا الموقع وجلوسه على الكرسي؛ إلّا أن حدْسه كان كافياً لتوقع حجم المعارك التي خاضها مع آخرين للجلوس على مقعده الوثير.

انتبه لتخيلاته، وربما هو من أشْعَر الرجل بذلك عند دخوله.. كأنه أراد أن يؤكد له ويُثبت صدق حدسه. نظراته غير البريئة كانت متحفِّزة. تكاد تصرِّح وتحكي عن تخطيطه الماكر الذي تمكن بسببه من إزاحه سلفه مدير المؤسسة السابق ليجلس هو في موقعه.

ومع وصوله إلى أول كرسيٍّ قريب، تحدث الرجل الخمسيني بصوته الوقور الحاسم الذي يتناسب مع عمره ووضعه:

أهلا بك يا عاصم.. ثم تابع الحديث سريعا وواصل دعوته الموجَّهة بثقة.. *تفضل..*

الصمت دائماً يبقى رسولاً للكآبة ونذيراً للخوف في مثل هذه اللحظات. كان الرجل يدري بأن عاصم الذي أمامه، بخلاف معظم المتقدمين الآخرين الذي سيمرون عليه اليوم. وصل إلى هذه المرحلة المتقدمة من المعاينات دون سند من شخص آخر. مرَّت عليه خلال تصفية المتقدمين العديد من خطابات التزكية والترشيحات من قبل نافذين بالدولة وأعضاء من الحزب الحاكم، وكثير من المنتفعين وأصحاب الولاء، وضغط عليه أصدقاؤه وجيرانه وزملاؤه

من المؤسسات الأخرى لاستيعاب أبنائهم وأبناء معارفهم وأصدقائهم، كان من الواجب عليه أن يحاول إرضاء المهمين والتضحية بالبعض. يعرف أنها لعبته التي يجب أن يجيدها في هذه الحياة لينعم برغد العيش الذي يتمناه وسط الوحوش والمنافسين، ويوقن بأنها سر بقائه في هذا المكان لمواصلة رحلة السمو الوظيفي، والعلو الاجتماعي، في بلدٍ تمكن فيه الكثيرون من احتلال مواقع إدارية ووظيفية، لم تكن تناسبهم، لكنهم أفلحوا في إعطاء المنصب الذي شغلوه ما يتطلب من سلوك وعطاء يشبه ما يقوم به الآن. يعلم ما يتوجب عليه فعله. يجب أن يكون تِرْسَاً فاعلا في دورة المصالح التي تُفرض عليه، وحريصاً على عدم إغضاب من يمتلكون القدرة على زحزحته من مكانه.. أيقن بذلك باكراً، وحالما وصلته قائمة المرشحين النهائية؛ راجع أسماء الموصى عليهم، تأكد من تنفيذه لرغبات بعض الشخصيات التي صنفها مهمة. بحث عن أسماء من هم خلفهم وراجع رسائل التذكير بهاتفه المحمول، وأبلغهم بقضاء الأمر.

عاصم؛ الذي يجلس أمامه الآن؛ وسماح التي خرجت قبل قليل؛ كانا هما الحالتين المختلفتين الوحيدتين بين كل المتقدمين لشغل الوظائف المعلنة. هما فقط من شذا عن البقية. دفعا بنفسيهما في أتون الأمل. تقدما إلى الوظيفة وحلما بالعمل ضمن موظفي المؤسسة؛ لم يكن هو ناسياً لذلك. كان حاضر الذهن، وعالماً بأنهما الوحيدان اللذان كانا بلا ظهرٍ يسندهما في هذا الطريق الشائك.

جلس عاصم، محاولاً التفكير والبحث عن أفضل الطرق للوصول إلى مبتغاه، كان يأمل في الحصول على الوظيفة بأية طريقة ممكنة، يدرك بأن المنافسة على الوظائف عمليةٌ مُجهدة ومرهقة نفسياً وجسدياً. لذا فهو ساعٍ لإراحة والده الذي كاد ايجار المنزل أن يفقده صوابه. في مرضه الأخير ذَكر لهم الطبيب أنه يعاني من توترٍ حاد بسبب الضغوطات الأسرية والمعيشية. عندما لاحت له ذكرى ما حدث يومها تساءل بينه ونفسه وأخذ يقول: هل يعلم الذين يتبادلون قذفنا ككرات التنس من هنا وهناك بأوضاعنا المعيشية وحالنا؟!! لو كانوا يعلمون لكفونا ربما شر التفكير والسهر لعبور مثل هذه المعاينات الظالمة والسخيفة.. كان يتحدث مع نفسه سابحاً في تفاصيل ماسأته، ولم ينتبه لكلماته الهامسة أمام الرجل. حتى أحس بأنه قد سمع تساؤله.. كان يدرك بأن معظم المتقدمين والمتنافسين معه، لهم ظروف معيشية صعبة، وبهم احتياج أكبر للتوظيف والعمل، لكن تصميمه الداخلي وتحدِّيه أبعد عنه كل تعاطف آني نحو غيره، وأقفل أمامه كل الأبواب سوى باب واحد، كانت تهب منه كلمات هادرة تحفزه بقوة وتقول: *أنت من يحتاج للوظيفة، تحتاجها، وبشدة.*. ومع تلك الكلمات والدعوات الصاخبة وجد نفسه راكباً لموجة التحدي.

شعر بأنه قد تأخر في الرد قليلاً. جلس وبدأ في تنفيذ خطته ومباغتة خصمه،

وقال مبتسماً:

شكرا لك..

قال جُملته ودعمها بعبارات أخرى بلغتين: الانجليزية التي يجيدها تماماً، والفرنسية التي كان متميزاً فيها. إتقانه لبعض اللغات الأجنبية، كان هو سر تميزه وتفوقه في كل الامتحانات السابقة على بقية المتقدمين للوظيفة. نطقه السليم لمفردات اللغتين، هي نقطة القوة التي كان يركِّز عليها دائما لضرب المنافسين، وخلب ألباب وعقول الآخرين.

نطق العبارتين بطلاقة ليفتح مجالاً جديداً للحوار. ونجحتْ خطته لأن عباراته ساهمت في تغيير مجرى الحديث فعلاً، ووقع المدير العام فريسة سهلة لمخططه المرسوم بحنكة ثعلب خبيث. شَعَر هو بذلك عندما ثَبت له أن الرجل حوَّل وجهة الحديث لما يريده هو، لكن بطريقةٍ أخرى أراد بها تَحَدِّيْه. فعاجله بلكنة انجليزية مماثلة:

نعلم أنك من المميزين في اللغتين الإنجليزية، والفرنسية.. نتيجة الامتحان وشهاداتك تقول ذلك..

أسعده استحضار المدير للمعلومة التي نطق بها.. وقال لنفسه فرحاً.. إذن هم مدركون لمستواي..

تفرّس الرجل في المستندات التي أمامه، وأضاف:

وتحمل شهادات أكاديمية تتناسق مع متطلبات الوظيفة التي نريدها..

صمت لحظة، وتابع بعدها:

لكن العمل الوظيفي شيءٌ مختلف.. قال عبارته ورفع عينيه عن الأوراق التي تمثل سلاحه في هذه الحرب اللعينة. ليتابع حديثه عن العمل..

يظن الكثيرون أن النجاح الوظيفي والعمل يتطلب ذكاءً أكاديمياً لكنه غير ذلك تماماً..

كان الحديث الأخير مُحبطا لعاصم. أحس بأن المدير يقول له ذلك لقتل طموحه ومخططه الذي بدا ظاهراً في حالة الزهو التي كان يشعر بها ويراها ماثلةً أمامه، ما جعله يتساءل ليريحه قليلاً:

*تريدني أن أذكر لك ما الذي يحتاجه إذن؟ *..

سؤاله كان مقصوداً لذاته، لكنه جاء كنوعٍ من الاستدراج الذكي لتبادل الأدوار، وتلطيف أجواء المعاينة.. أضاف عاصم:

*يحتاج للالتزام، والاجتهاد، والمثابرة، والتعاون، والرغبة.... *

هذا صحيح.. اتفق معك تماماً

يرد المدير بتأكيد ما سمعه.

وقبل أن يتركه لمواصلة ما بدأه من إجابات، عاجله بالنتيجة النهائية التي لم يكن وصل لمرحلة توقعها..

هل أنت جاهز الآن لكل ما ذكرت..؟

يرد عليه عاصم بثقةٍ، وتحد:

نعم، جاهز. وسترون ذلك إن قمتم بتعييني.... يصمت قليلاً ليمهِّد لنفسه فرصة الضربة القاصمة والنهائية على الخصم،.. *جاهز إن سنحت لي الفرصة، وأصبحتُ موظفاً بالمؤسسة..!! *

مبروك..

قالها المدير ثم وقف مادًّا يده لعاصم، منحه تقديره، وأشعره بأن خيطاً ما قد ربط بينهما منذ البداية.

وحالما تأكد من انطلاقة مسيرته العملية في ذلك اليوم، عَرف عاصم أنه قد نجح في الدخول إلى قلب المدير العام، والسكنى في سويداء قناعاته. بل أصبح بمرور الأيام من المقربين إليه، لدرجة أن أسماه بعضهم ابن المدير العام. كان حريصاً ومجتهداً في المحافظة على هذه المكانة المكتسبة. على الأقل إلى أن تثبت الأيام للمدير عكس ما يعتقد، وهذا ما لم يكن ليسمح بحدوثه أبداً.

- ٣ -

دلف عادل مرحوم إلى مكتب صادق عبد الرحمن طالباً منه الإسراع بالتوقيع على خطاب إجازته الذي تأخَّر كثيراً. تذَرَّع أمامه بمحاولة اللحاق بطائرة الساعة الثامنة المتجهة إلى إحدى الجزر الأسيوية في صباح الغد. لم يستطع أن يعترف له بحقيقة انصياعه لقرار زوجته التي اختارت هي توقيت الإجازة والسفر. يعلم بأنه لا يملك الشجاعة ليقول بأنها مَنْ خططتْ لقضاء إجازتهما بعيداً عن ابنة خالته التي تقيم معهما بمنزلهما متعللة بدراستها الجامعية بالعاصمة. يدرك بأنها قد فكرتْ وقررت إطلاق رصاصة الرحمة على اجتهاداتها العاطفية الدؤوبة، ومحاولتها المزعجة للظفر بزوجها. أقفلت كل نوافذ الأمل أمامها، قررت السفر حتى لا تجد البنت سبباً آخر يبقيها لوحدها بالمنزل، فتصبح مضطرةً للبحث عن داخلية أو سكن طالبات يأويها. أقفلت أبواب البيت وتعللت لجاراتها بحجة أن المؤسسة ستبتعث زوجها في رحلة عمل، ولأنها شاهدت إعلانا بإحدى القنوات التلفزيونية لبعض الشركات السياحية التي تعلن عن فرص لقضاء الإجازة بتلك الجزر. اختارت للرحلة التي صنعتها من خيالها جزر المالديف. فعلت كل ذلك نكايةً في الفتاة الناعمة التي أوشكت على النجاح في خطف زوجها وبعثرة حياتها وبيتها. لم يستطع هو الدفاع عن موقفه أو موقف بنت خالته، أو القتال من أجلها. دواخله وأحاسيسه كانت ترفض ما يحدث أمامه لكنه لا يقوى على فعل شيء.. لذا اكتفى بالصمت والهزيمة المُرَّة. كان رجلاً قصيراً، ممتليء الجسم، يحمل أمامه كرشاً كبيراً، تجعله يبدو أشبه بالبطريق البحري عند تحركه. لكنه يتمتع بصفات أخرى غير متناسقة مع شكله الغريب. فبالإضافة إلى ما فيه من ذكاء فطري؛ كان لماحاً، طموحاً إلى حد المبالغة، لا يفعل شيئاً ويتركه للأقدار وحدها، ولا يقدم على فعل دون أن يخْضعه لحساباته ومصالحه، يسعى للوصول إلى ما يريد بشتى السُبل، لا يتوانى في انتهاز الفرص التي تتاح له. يشهد على ذلك أصدقاؤه ومعاصروه وزملاؤه بالمؤسسة. بدأ عمله بالمؤسسة بسيطاً، هزيل التجربة، ضعيف الكفاح والمستقبل، لكنه قفز قفزاتٍ عديدة، وفي وقتٍ وجيز، حتى فاق من علموه أصول وفنون العمل، كل ذلك بسبب فهلوته وذكائه الاجتماعي المفرط، وقربه من المدير العام بعد جني ثمار التخطيط الذي انتهجه كأسلوب تكتيكي منذ عدة سنوات.

مازحه صادق بعبارته المعتادة التي دائماً ما تُعبِّر عن بلاهته الموصوف بها في مجالس ندماء المؤسسة..

نحن في خدمة معاليكم..

نفس العبارة التي يقولها للجميع، ثم يتبعها كعادته بلُعابه السائل من فمه، لدرجة أن طول العبارة التي نطق بها لو زاد حرفاً واحداً؛ لوصل اللُّعاب إلى الأرض.. هذه البلاهة المُحيِّرة التي جعلت كل مَن بالموسسة يتساءل عن سر

وصوله إلى المكانة التي هو فيها الان!!.. كان عادل في هذه اللحظة يتساءل مثل كل مرة يرى فيها صادق بهذا الشكل، يقول مستغرباً: ما الذي أوصله إلى هذا الموقع؟.. ويجد نفسه يجاوب على سؤاله الغريب بلا شعور. أن تكون مديراً إدارياً؛ وبمؤسسة كبرى، فهذا مرادفٌ عنده لمعاني القوة الإدارية، والشكيمة والبأس، والقدرة على المعالجة، وتحمُّل الآخرين. وسرعان ما تراءت في ذهنه شخصية جاره الفولاذية التي يضع لها ساكنو الحي ألف حساب، لأنه مدير إحدى الوزارات الحكومية. ذاك شخصية تتحمل ضغوط العمل، وصعوبته، وتتمتع بالصرامة والذكاء. يكاد من شدة حنقه واستغرابه من بعض أوضاع مؤسسته أن يقولها لصادق بلسانه ولسان كل من يقتله نفس التساؤل اللحوح. *يا أخي صادق؛ العمل في وظيفة مدير، أياً كان شكل الإدارة، يتطلب نوعاً من الحنكة والخبرة لخلق التوازن المطلوب بين متطلبات الإدارة والعاملين، لكنك لا تحمل شيئاً من هذه المواصفات.. فما الذي أوصلك هنا؟..*. يكاد يقولها فعلاً لكنه يصمت. وفي الحقيقة فإن صادق كان حَمَلاً وديعاً، وإنساناً بسيطاً، لا يفهم من الدنيا سوى القليل، تستطيع امرأة بسيطة التفكير أن تغيِّر مسار يومه، وإرباك حياته بهزة ردف، أو بنفحة عطرٍ رخيص علق بثوبها أثناء مرورها. بل وتنجح في تطويعه بإشارةٍ من يدها إن أرادت ذلك. وعندما أطلق جُملته التي تنتظر إجابةً لن تأتي أبداً، وحاول أن يبدو ظريفاً، مثلما يصِّر في كل مرة، فلا يجني غير تندر الآخرين؛ ضج كل المكتب بالضحك، والتفت السامعون نحو صاحب الصوت الذي كان معلوماً لكل الآذان الدائرة بفلك المؤسسة. لم يجد عادل مرحوم أمام هذا الموقف المحرج بُدَّاً من الخروج والوعد بمعاودة السؤال عن خطاب الإجازة، أو إرسال من ينوب عنه أثناء فترة الدوام لاستلامه إن شغله شاغل آخر أثناء اليوم.

* * *

كالعادة، ومثلما يفعل حسام الشيخ يومياً عند كل صباح، ومع هدوء المكتب؛ جلس خلف شاشة حاسوبه المنصوب أمامه، ممسكاً بكوب قهوته المعتاد، يعالج تقريراً مالياً دورياً حول مبيعات المؤسسة، كان مديره المباشر قد طلبه منه لمناقشته بالاجتماع الشهري الذي يجمعه بمديري ومسئولي المؤسسة بالفروع الأخرى والولايات. كانت حركة المبيعات مقلقة في هذا الشهر، وبالتالي فالموضوع سيكون مزعجاً في الاجتماع القادم، ويتوقع أن يكون النقاش حاداً بين الإدارة والفروع. دخل عليه عاصم وعلى ملامحه تلك السعادة التي حالما وصل إليها صدح بأغنيته المحببة والأثيرة إلى نفسه.. كان شفافاً ومفضوحاً، لا يستطيع إخفاء أحاسيسه، طيب القلب، بريئاً حد السذاجة.. كل من يراه على هذه الدرجة من السمو الروحي، يعلم بأنه يعيش في حالةٍ سامية من النشوة والفرح..

* اليوم.. سعيييييد وكأنه عيييييد.. *

تررررررم.. تررم... يالللللا...

لم يكد حسام يتذوق بلسانه طعم القهوة ويضع الكوب على المنضدة ليتفرغ ويسأل صديقه عن سبب سعادته تلك، حتى سبقه عاصم ليقول مبتسماً:

قابلتْني الآن.. ونفحتْني بعطرها يا عزيزي..

رد حسام باستغراب..

مَن هي التي قابلتك؟؟

يتجاهل عاصم السؤال، ويواصل بفرحته التي لم تسعها الأرض..

هل تصدقني. إن قلت لك.. لا أ د ر ي....

* لا أدري مَن هي*.. وأكمل بثقة من لا يشك في ما يقوله، *لكنها أيضا تعلقت بي.. متأكدٌ أنا من ذلك.. إحساسي دائماً لا يخيب..!!*

باندهاش المعتاد على ذات الحوار مع صديقه، يرد حسام:

*كنت أعلم أنك مجنون.. *

ثم يتابع حديثه الناقد للطريقة التي يتحدث بها:

*كيف لإنسان أن يفرح بشيء.. ثم يأتي ليقول مثل ما سمعته منك الان !!..انت غريب والله، غريب جداً *

وقبل أن يكمل العبارة.. قال عاصم بشعور المنتشي، أو كمَنْ وجد حلّاً لمشكلةٍ أرَّقته..

يكفيني، أنني حادثتها اليوم يا صديقي، أخذ نفساً عميقاً ثم تابع بقية حديثه:

جاءت هنا وتحدثنا معاً.. ومن المؤكد أنها ستعود.. وسنلتقي مرات أُخر..!!

قالها ولم يعبأ بعد ذلك بكل الذين لاحظوا تأخره عن الحضور في الوقت المحدد لبداية الدوام، وعدم تسلمه العمل بمكتبه. ترك صديقه في حيرةٍ وجنون. وارتمت روحه بانتشاء وسعادة على الكرسي الذي يجاور مكتب حسام.

* * *

بعد تخطيه لعتبتها الرئيسية مباشرةً؛ ودخوله المنتظر، أُوصدِتْ أبواب قاعة الاجتماعات الكبرى، وخطا المدير العام مسرعاً نحو مكان جلوسه المُعد مسبقاً بترتيبٍ منقطع النظير. سكت الجميع، وماتتْ الهمهمات بالقلوب الواجفة. وكعادته دائماً؛ تفرَّس في العيون التي تطرق بعيداً، أو إلى الأرض. حدَّق في الملامح التي ما زال بعضها يُبحلق في اللاشيء. هروباً من الواقع، أو انشغالاً بأمر آخر، وربما تجنبا للنظر إليه، حتى لا تتواجه مع نظرات عينيه

المخيفة. كانت القاعة تضج بالموظفين. كمال غريب، عادل مرحوم، إبراهيم وهبي، تماضر، ماهر عبد السميع، جعفر المهدي، سليم عوض السيد، جبر الله، هناء، ورباب الحسيني، والبقية. حضروا إلى الاجتماع بعد أن وصلتهم الدعوة كالعادة من صادق عبد الرحمن، مسؤول الإدارة، وتنظيم الاجتماعات الدورية بالمؤسسة. كان بحكم موقعه مشرفاً على التحضير والترتيب لمثل هذه اللقاءات التي تأخذ طابع الأهمية القصوى، بسبب ما يُناقش فيها من قضايا، وما يتبعها من قرارات وتنقلات في مواقع الموظفين. جلس المدير العام باحساس الواثق على كرسيه الذي يتوسط مقدمة القاعة. ألقى إليهم بتحيته المقتضبة. تعوَّدوا عليه هكذا، وتعوَّد عليهم أيضاً. سيلتقيهم اليوم ويفرغ ما في جوفه من حِمم وبراكين. كلهم متابعين لوضع المؤسسة في الفترات الأخيرة التي شهدت تحولات في مسار العمل. غادرها البعض، واستقال عن العمل بها كثيرون لأسباب مختلفة. مغادرات بعض الموظفين عكست مؤشرات ليست جيدة عن المؤسسة، لأنها أظهرت الصورة السيئة لها في سوق العمل. كانوا يتساءلون: أتُرى سيتحدث في ذات الموضوع، أم أن هنالك أموراً أخرى تستحق الاهتمام أكثر مما نعرف؟!!..

ليقل ما يشاء فكلنا آذان صاغية.

هكذا إذن كانت الأفئدة تنصت، والنظرات تقول.

ورغم أن أهله وأقاربه وجيرانه كانوا يصنعون حوله حالةً من النجومية والتقدير، ومع تلك الهالة الأخرى التي يضفيها هو على نفسه؛ إلا أنه بدا منفعلاً وغير جاهزٍ لمخاطبتهم. كان موقناً بأن البعض يفهمونه، ولا يضعون له أكثر من قيمته الحقيقية. ويعلم بأن هيبته المصنوعة لن تطغى على الجميع. وبالرغم من أنهم كانوا يدركون بأنه المسؤول الأول بالمؤسسة، وبإمكانه فعل أشياء كثيرة ضد مصالحهم، لكن ثقتهم بأنفسهم كانت شيئاً آخر. ربما لم ينتبه في غمرة تعاليه إلى أنه انسان يمكن أن يخطيء مثل غيره من الناس. وأن حديثه قد يحتمل الخطأ والصواب. وما صمت معظمهم عن ما يفعله إلا جزءاً من الحقيقة التي لم تقو ألسنة الكثيرين على الإفصاح عنها، حتى وإن كان بينهم مَن يمتلك شجاعة الصدح بمثل هذه الحقائق المؤلمة، فإن الرجل الذي يظن أنه قادر على تغيير كل شيء. لم ينتظر كثيراً بعد ردّهم على التحية التي ابتدرها، وإنما بدأ يتلو عليهم المزيد من الأوجاع والألم. ظل يتحدث ويرغي كثيراً. عن شحنات البضاعة التي تأخرت. والمشاكل العديدة التي تواجه المؤسسة. المديونيات المتراكمة منذ فترة ولم تسدد. نقص المبيعات، وعدم وجود المشروعات والأفكار الجديدة. وفي النهاية؛ دعا الموظفين للمزيد من الصبر والتكاتف، وطالبهم بعدم تصديق كل ما يسمعونه من أخبار سوداء تنشر ضد المؤسسة.

- ٤ -

نزلتْ أريج مسرعةً من السيارة، تحمل في يدها حقيبتها الجلدية الجميلة التي اشترتها من أكبر المولات بشارع اوكسفورد. كانت الحقيبة؛ وبعض مقتنياتها الأخرى الثمينة المعتزة بها؛ ثمرة لرحلتها الأخيرة مع العائلة إلى لندن. تتباهى بذلك وسط زُملائها وزميلاتها خاصة أولئك الذين زاروا بريطانيا وخبروا تلك البلدان الباردة. لا تستطيع دائماً أن تخفي ولعها وشغفها الدائم برحلات تسوقها بمولات وأسواق الدول الأوربية. تسرد حكاياتها على الجميع، وعندما تحكي لسامعيها قصص تسفارها الكثيرة، لابد أن تشعرهم بزهوها وافتخارها بالرحلات والمقتنيات الجميلة. حتى سائق العائلة الخاص؛ حفظ مساراتها وتجوالها، وحفظ أهم دور الأزياء بشارع ريجنت، وشارع بوند. أما صديقتها هند التي كانت أكثر من يرافقها بحكم مزاملتها لها منذ الصغر، فقد أصبحت معتادة على عباراتها ولم يعد اندهاشها شيئاً ملاحظاً عند الحديث عن اوكسفورد، موطن المتاجر والمحلات الخاصة بالماركات العالمية. هي مغرمة أيضاً بالسفر، ومن فرط هيام أريج بالمدينة وحبها للمكان سمحت لها صديقتها أن تحكي عن كل شيء أعجبها هنالك.. الشارع التجاري الفخيم، حافلات النقل العمومي، ومحطات الميترو الكثيرة التي تعبت من حفظ أسمائها، ومواقع مداخلها في أيامها الأولى بالمدينة. قبلت أن تمنحها فرصة الإفصاح عن تهويماتها الجميلة وعشقها الأبدي، لذلك لم تندهش عندما قالت لها وهما يصعدان عتبات سلم الكلية إن التسوق باوكسفورد يذكّرها بوعود العاشقين وانتظار طلتهم الحالمة. ويحسّسها بأشواق الباحثين عن مفاتيح وكنوز العشق الثمينة. ينبئها عن الأحلام التي يترقبونها لتحقيق غاياتهم. فيجعلهم يموتون بانتظارها ولا يتحقق شيئاً منها. حدثتها أنها بقدر ما تتجول به كانت تخرج بالمزيد من الأحلام، وتعود لتبحث من جديد على سلعةٍ رأتها في مرةٍ سابقة. هكذا كانت تصف تجوالها بشارع اوكسفورد كأنه قطعة من الجنة في الأرض. تتحدث وتحكي بأمل وترقب وتضيف: *مثل حُلمنا بالعثور على فتى أحلامنا المنتظر*. تتثاءب هند وتضع يدها على فمها، فتظن أريج أن صديقتها هند تضحك عليها لمعرفتها بأنها تفتقد الحب الحقيقي، ويقينها الكامل بفقر تجاربها الغرامية. فتصيح بها أريج خجلةً وتضربها على كتفها، ثم تدخلان معاً قاعة الدراسة.

* * *

تفرَّس حسن فَكَّة في قائمة المأكولات والمشروبات بـ(همس المشاعر)؛ الكافتريا التي يجلب منها يومياً ساندويتشات الإفطار لموظفي المؤسسة. لم ينتبه لطول الزمن الذي احتاجه كي يحدد ما يريد من أصناف إلى أن نَبَّهَهُ صاحب الكافتريا بصوته المبحوح من كثرة نداءاته على العاملين بالكافتريا:

ماذا بك يا أخينا حسن فَكَّة ؟..

وأتبعها بتساؤل آخر مستفسراَ..

كأنك تزورنا لأول مرة!!.

وانتبه حسن لحقيقة ملاحظته، فانشغاله بموضوع يونس غسَّال العربات، وعدم إنجازه لوعده كان شيئاً مزعجاً بالنسبة له، اجتهد ولا يزال مجتهداً لكنه لم يستطع الوصول إلى أية نتيجة حتى الآن.

ستفرج بإذن الله..!!!

انتبه لأنه نطق العبارة فعلاً بعد أن سأله صاحب الكافتريا عن المشكلة التي ستفرج، بّاثَّاً على نفسه نوعاً من الطمأنينة.

ستفرج فعلاً يا فَكَّة، كل الأمور لها حل بإذن الكريم.

وقبل أن يترك له فرصة الرد والاسترسال في الموضوع، لأنه يعرف حسن فَكَّة وحديثه الذي لا يتوقف، سارع بسؤاله عن ما يريد..

عشرون ساندوتش بيرقر، وعشرة من الطعمية والبقية شاورما.. قالها ومَدَّ له ست ورقات نقدية من فئة الخمسين جنيهاً.

شكره صاحب الكافتيريا، والتفت إلى بقية الوجوه الجائعة التي لا ترتاح إلا بالتزاحم اليومي الصباحي أمامه متصارعةً حول صندوق البيع. خالجَه إحساس بالضجر وهمس لنفسه مُتحسِّراً. أهو الجوعُ وحده، أم الجهل، أم كلاهما معاً الذي يفعل بالإنسان كل ذلك؟.

وصرخ فيهم:

ارجعوا للخلف قليلا.. واصطفوا.. اصطفواااا يا ناس..

***

المُحاضر كان رجلاً تعدى الستين من العمر، أشيب شعر الرأس، خفيض الصوت، هادئ لدرجة أن همس الآخرين يمكن أن يعلو على صوته ويخلق نوعاً من التشويش. كانت أريج تجلس رفقة صديقتها هند وتتابع المحاضر باهتمام. هي إذن محاضرتهما الأولى ببرنامج الدراسات العليا، وعليها أن تبدأ منذ لحظتها بجدية لمواصلة رحلة تفوقها الدراسي والأكاديمي.

عند نجاحها السابق في المرحلتين الثانوية والجامعية، احتفلت مع زميلاتها في أفخم الفنادق. وقدَّم لها والدها بعد تفوقها هدايا لم تكن تتوقعها، حتى أن زميلاتها أصابتهن حمى الغيرة الأنثوية، وأشعرنها بحظهن العاثر. كُن يتبادلن أمامها عباراتِ الغزل والإعجاب بوالدها الذي بدا في نظر أغلب زميلاتها زوجاً مثاليا وفارساً لأحلامهن. أما أخوها نبيل، فقد كان وضعه بالأسرة يختلف عنها، لأنه حُظي بعد نجاحه الأخير، ودخولة المرحلة الجامعية بسيارة جميلة كما كان يطلب ويتمنى.

كانت المحاضرة تمشي رتيبة لكن اللحظة التالية حملت مفاجأة لم تكن تتوقعها. دخل هو إلى القاعة. ظهر من الباب الأمامي، وجلس بأقرب كرسيٍ قابله. احتل مكانه في مواجهة المحاضر تماماً. اطمأنت لصدق حدسها الذي أشعرها بأن هناك فرحٌ قادم منذ الصباح. كانت تحس بحالةٍ من الانتشاء الروحي، والسمو العاطفي النبيل، كانت تشعر بذلك فعلاً، ودونما سبب واضح، تساءلت روحها: أهي النفوس يا تُرى أم توارد الخواطر!!.. وكيف هي تلك اللحظات التي تبقى مصدراً ملهماً للعشق والتداعي؟.. هل يمنحنا القدر أفراحاً لأننا حملنا أرواحنا على أكف الضراعةِ والآمال، ويُدلقها أمامنا هكذا كما نود!!. وما الذي يحدث أمامي؟ هل هو مكافأة لصبر العاشقين والمناجاة التي يدركها الخالق وحده؟؟.. أم هي فرحة سرمدية قادمة، أهي مكابدة غير معلومة العواقب كما هي رحلات العشق الشجية..أم شيئاً جميلا سيأتي!!.. هكذا عبثت بها الأحلام والأماني حتى شعرت بدواخلها تتحرك، وبذبذبات الوَلَهْ تتبدى أمام عينيها، وأحسَّت بجمرات الهوى تتحرق في غليانها الداخلي المحموم، وبالرغم من ثقتها في معرفتها لملامحه التي رسخت في ذهنها بعد أول تلاق لأعينهما واستسلام قلبها بعد ذلك لنظراته القاتلة بمداخل وردهات المؤسسة ومن ثم لقاء المصعد الأخير، إلا أنها لم تكن متأكدة أن مَن دخل وجلس كان هو نفسه.. ولأنها لم تكن تحلم بمثل هذا اللقاء السريع، فقد ظلت في حالة ترقبها وانتظارها الدافيء لنهاية المحاضرة لتتأكد من أنها قد لمحته فعلاً..

هي إذن في قاعةٍ واحدة مع آسرها.. قاتل كبريائها.. ومعذبها الذي فتك بعزلتها منذ ذلك اللقاء.. لم تحتمل تَحَرُّقها الشديد، ولا حتى الصبر على بقية الزمن المتبقي لانتهاء المحاضرة. ولكن لم يكن بيدها شيٌ لتفعله بين تضارب مشاعرها وأحاسيسها. كان عليها أن تنتظر رغماً عن عدم قدرتها على التحمُل.

* * *

استلم عادل مرحوم خطاب إجازته. كان ممهوراً بكل الأختام والتوقيعات التي أصبحت تتويجاً وإعلاناً لسطوة زوجته وسيطرتها على كل مفاصل حياته. بعد أن تمكنت من ضبط إيقاع تحركاته، وأصبحت المُحرِّك الفعلي لقراراته المصيرية.

أخرج تذاكر الطيران من درج مكتبه، وأطلق تنهيدة حرّى من أعماقه بسبب ما يحسّه من ذكريات مُرَّة لم يتمكن من نسيانها.. داهمته صورة رجاء بنت خالته وابتسامتها التي استقبلته بها أمس في غفلةٍ من رقابة ونظرات زوجته المميتة. كيف له أن يتركها وينصاع لأوامر زوجته التي ستقضي على كل ما بناه. رجاء هي باقي آماله في الدنيا، بعد أن فشل في اعتلاء صهوة جواده المنتظر، والجلوس على كرسي المدير العام بالمؤسسة. يدرك أن مساعيه لابد أن تتحقق يوماً ما، قد يطول أمد انتظارها إلى سنوات طويلة. لكنه لن

ييأس وسيجتهد وراء تحقيقها، والزواج من رجاء هو الأمل والدافع الذي قد يوصله لمراده.. يعشقها ويجري هواها في دمه. الحسرة تكاد تقتله كلما لمح في عينيها ذلك البريق السحري.. لكن مع هذه الحال فكل رحلته الموعودة من السعادة ستنتهي. سيغرق زورق الأحلام وتموت البهجة. أخرجته من حالته الهائمة تلك، رنة هاتفه الشخصي المكتومة، التي عبَّرَتْ عنها هزَّات قوية داخل جيب سترته.

أسرع بإخراج الهاتف، توقع أنها زوجته. ضغط على زر الرد بعجلة قبل أن يشاهد اسم المتصل. لم ينتبه لطريقة رده التي تثبت لمن يسمعه أو يشاهده أنه خارجٌ للتو من بقايا لحظات حالمة، يرد:

ألو.. مرحبا....

وكما توقَّع؛ يجدها هي.. زوجته بالمنزل، تستفسره مستعجلة..

هل تمكنت من إكمال الإجراءات؟

نعم..

قالها كالمغصوب على فعل أمرٍ ما، كانت تشعر بضغطها عليه وتصر على مواصلة سياستها معه..

إذن.. لا تنس أن تحضر بقية الاحتياجات التي كتبتها لك صباحاً..

لم يكن قد نَسيها في الحقيقة.. كيف له أن ينسى طلبات مَنْ تتسبب له يومياً في المشاكل.!! إن نسى شيئاً ورجع دونه؛ وجد نفسه بين سندان لسانها، ومطرقة عنفها اللفظي، ومعاركها التي لا تنتهي. تعنيفها الشديد يجعله يخرج من دنيا أحلامه كلها، ويبقى في قارعة طريق الأشياء المنسية، لدرجة أنه بدأ التفكير جديَّاً في الهروب من المنزل والإقدام على الزواج السرِّي من رجاء. تلك الحالمة بالتمتع معه بدلاً عن هذه اللبوة الشرسة.

كان صامتاً يبحث عن مخرج.. وجدها ما زالت تنتظر الإجابة على سؤالها. قال بلهجته الخائبة والمنكسِرة:

لم أنسها....

وأتبعها بعبارة كانت تنتظرها بفارغ الصبر:

استعدي للسفر غداً عند الثامنة صباحاً.

كان معترفاً بالخوف منها، لكنه قادرٌ على كفاية نفسه شرّها. على الأقل فهو قد نجح في إبعاد المشاكل عنه هذا اليوم، أما في الأيام القادمة فإن له ربٌّ يحميه. ولأنه يدرك بأنها كانت في تشوّق كبير للرحلة؛ فقد كان على ثقة بأنها لن تكون في انتظار حضوره بعد هذه المحادثة، لأنها ستذيع كل ما في ذهنها

من كلام ووسوسات عن الرحلة القادمة، بعد أن حفظ الجيران كل شيء عنها قبل أن تبدأ إجراءاتها. وهذا ما حدث فعلاً. إذ إن كل الحي؛ وفي ظرف خمس دقائق؛ علم بكل تفاصيل ومواعيد الرحلة، ذهاباً وإياباً.

***

عالج حسن فَكَّة بعض مراسيله الأخرى. طلبات هناء المزعجة التي تقحمه في خصوصياتها، كما تدس أنفها في كل ما يخص الآخرين. كروت شحن الهواتف الشخصية، وخدمات توصيل الأغراض من هنا وهناك. توريدات وصرفيات بعض شيكات الموظفين من البنوك، وجلب بعضاً من الفواتير المهمة التي طلبها منه موظفو المناقصات. كان يعلم بأنهم ينسقون فيما بينهم لاستخدام الفواتير في إرساء العطاء لمن يريدون، لكنه أبدى لهم عدم الفهم وأشعرهم بأن الأمر لا يعنيه. انعطف بعدها من الشارع الرئيسي، ودخل إلى صديقه العجوز عبد العال، صاحب دكان الساعات القديمة. كان يأمل في تنظيف ساعته الروليكس التي حصل عليها في مسابقة المؤسسة، يوم أن توجوه بصفة أكثر العاملين تفانياً وإخلاصاً. كانت الساعة جميلة وغالية. فكر أن يبيعها أكثر من مرة وتراجع بسبب وجود اسم المؤسسة المكتوب داخلها، وعدم قدرته على إزالته رغم محاولات المسح المتكررة منه، واجتهادات الإزالة التي جرَّبها عبد العال من بعده. وفي النهاية اقتنع مجبوراً بالاحتفاظ بها كعنوانٍ لنجاحه، وذكرى للجائزة التي كُرِّم فيها. أما صديقه عبد العال فقد ظل منتظراً ومُلِّحاً عليها. كان في كل مرة يدخل فيها الدكان لإصلاح ساعة واحد من الموظفين؛ يلفت عبد العال انتباهه من جديد إلى موضوع الساعة، ثم يعيد طلبه ويسأل راغباً في منحها إياه، وبالسعر الذي يطلبه حسن، فيتهرَّب هو من الإجابة على الطلب لإدراكه بصعوبة تحقيق رغبه صديقه. دخل هذه المرة مستعجلاً وقّدم ساعته للتنظيف، وظل يتجاذب معه بعض أطراف الحديث، إلى أن شعر بأن الوقت قد حان لأخذ الساندوتشات فودَّع صديقه وخرج. أكمل بعد ذلك جولته وعاد بسرعة ليأخذ طلبية الساندوتشات ويمضي خشية أن يتذكره واحدٌ من كبار الموظفين فيوبخه مثلما يحدث كثيراً.

كان حسن فكة شخصية مختلفة. طويل القامة، غريب الشكل والوجه. كبير الفم وعريضه. صغير العيون والأذنين. يحمل وجهاً أشبه بالمثلث متساوي الساقين، ذي القاعدة الكبيرة. تبدو يده اليسرى معقوفة إلى الخارج جراء حادث قديم، لم يُفلح بصير قريتهم الوحيد في إرجاعها لمكانها الصحيح بعد الحادثة. يبدو متصالحاً مع نفسه للدرجةِ القصوى. بل؛ والمدهشة للبعض. التصالح الذي يجعله يفتخر دائماً بالنجاحات العديدة التي حققها في مسار حياته، مثل حصوله على قطعة أرض فسيحة بأطراف العاصمة، وبنائه لمنزل يأوي عائلته الكبيرة وزوجاته الثلاث، وتعليم أبنائه، وإدخالهم في أفضل المدارس. ورغم عدم تمكنه من تلقي التعليم الرسمي بالمدارس؛ إلا أنه كان يفاخر بقدرته على القراءة، والكتابة، وفك الخط.

- ٥ -

لم يكد المحاضر يغادر عتبة القاعة بعد انتهاء الدرس؛ إلا وكان قلب أريج قد بارح مكانه وعَبَر مُدرجات القاعة كعصفورٍ بريء يرنّق حول رياض يانعة بالزهور. كانت تتحرك بلهفةٍ وسرعة لم تعهدها فيها صديقتها هند. مندفعة كانزلاق المياه من ربوةٍ عالية نحو هوة سحيقة. تدفعها دماء العشق الهادرة من قلبها، ويسوقها سعير لهفتها النابضة بالحياة. تنشد وصولها لإطفاء شهوة البقاء الأبدي في حضن معشوقها الجميل، والتمرّغ في ثنايا روحه العذبة. يحدوها أمل اللقاء برفيق المصعد، آسرها الأول والآخير.

وصلته.. وجدته يحادث فتاةً أخرى، كانا في حالة من الاندماج الكامل، يناقشها حول أمرٍ لا صلة له بالمحاضرة. وقفت بالقرب منهما، سمعته يسألها:

كيف حال صديقنا الطاهر.؟.. ألم يترك عمله المرهق ذاك؟.. فقد أبعده عن المدينة؟.

كانت الفتاة فّرِحة لدرجة أن الابتسامة لم تفارق شفتيها. تجيب على أسئلته بسرعة من يريد إكمال الاجابات لاستلام زمام الحديث وتحويله إلى أسئلة جديدة ووجهةٍ أخرى..

هو هكذا دائماً، مولعٌ بالعمل، أنت صديقه وتعرفه أكثر منّي..

استغلت صمته لثوان، ثم تابعت حديثها لكن على نحو ما رغبت هي بالحديث حوله..

لكنك لم تجاوبني.. ما الذي أقنعك بالتخصص في هذا العلم.؟؟..

وتابعت سؤالها بإشارات فهمها، وبدت لأريج مرتبطة بنقاشات سابقة..

قلت من قبل إنك لن تواصل في هذا المجال..بالرغم من اقتراحي لك بالدراسة فيه.. كانت تتحدث وتجتهد في محاولات متصنَعة لإصلاح وضع طرحتها التي سقطت من كتفها أكثر من مرة. وواصلت حديثها معه.. أذكر أنك رفضت هذه الدراسة حينها.. فما الذي أعادك إليها لنلتقي اليوم في القاعة؟

ضحك وأجاب:

تغيَّرت الظروف يا ست.. دخلت في عمل جديد، والمؤسسة التي التحقت بها تدعم الذين يتخصصون في مجال هذه الدراسة، وهي مستعدة لسداد رسوم الدراسات العليا هنا، كان من السهل عليَّ الحصول على منحة العام، وقررت أن اختصر الزمن. لكن ليس هذا آخر المطاف؛ فقد أعود لإنجاز ما كنت أحلم به فيما بعد، وفي مكان آخر

صمت قليلاً ليمنح نفسه فرصة تأمل وجهها وردة الفعل البادية على ملامحها..

لحظة صمتها التي أحس بأنها قد طالت؛ كانت كافية لتسافر بها إلى سنوات دراستهما معاً.. لم تنس ما بينهما من حوارات ساخنة، ولقاءات ملهمة وبريئة أثناء دراستهما الجامعية. كان يتحفها كعادته بعباراته الشعرية الجميلة التي يكسوها بحُلّة من عواطفه الزاهية، يدلق عليها حروفه الباذخة متغزلاً في حسنها.. لم تدعها أريج تنعم بباقي أحلامها، وظهرت أمامهما، داهمتهما وبادرت بالسلام. كانت قد سمعت تقريباً معظم عباراتهما وحوارهما. وفي الحقيقة؛ أحبطها ما سمعته في البداية، لأنها شعرت بعُمق العلاقة ورسوخها بين الإثنين. فما سمعته، وما رأته أمامها؛ لم يكن حواراً عابراً أو معرفةً سطحية، بل كان تاريخاً ذا جذور، لكنها بالرغم من كل ذلك، لم تيأس وتبتعد. بل قررت الدخول من الباب الكبير.

وحالما رَآها أمامه واقفة؛ برزت له صورتها الأنيقة بمعطف الفرو، عندما تقابلا بمصعد المؤسسة، في ذلك اليوم الشتائي الجميل. يوم أن أيقنت دواخله بعد ذاك اللقاء بأن الشتاء هو موسم الهوى، ومُشعل قناديل الأشواق في القلوب. موسمٌ مفعمٌ بالحب، ودفء الأحاسيس، ورقصها الروحي على إيقاع الفاتنات وجمالهن. هو موسم الندى، والتَبتُّل، لا موعد الجفاف كما يُوصف من الجميع.

سَلَّم عليها ورحبتْ بها مشاعره كلها قبل أن يمد يده لتحيتها، استعان بالكثير من عبارات السلام والترحاب ليصلها إحساسه المتبتِّل الملتاع. لهفة انتظاره لهذا اللقاء كانت كدَفْقةِ بوحٍ صاروخية قادمة من أديم الحرمان والأسى، لأنه أحَس منذ لحظة لقائه بها؛ بعنفوان قلبه قد استفاق من جديد حتى صار مثل قنبلةٍ ذريَّةٍ على حواف الانفجار.

هي، نسيتْ وقائع اللحظة، والزمان، والمكان، قاعة الدرس، وصديقتها هند التي تتابع من بعيد. كان عشقه داخلها متكوِّراً، ومستديراً، ككتلةٍ من اللهيب والاحتراق، لكنه رغم حريقه الذي شعرتْ به داخلها؛ أنار قلبها الذي لم يعد كما كان في الماضي. هو فقط؛ مَن تحداها وكسر كل يقينياتها التي كانت لا تعترف بالحب والعواطف والهوى، كسر القاعدة التي تسير عليها، ورمى بعيداً بكل قناعاتها السابقة. بعثرها لقاؤه، وتيقَّنتْ منذ أن واجهت نظراته بالمصعد؛ أنها قد فقدت رزانتها وأسلحتها كلها. هزمها وجلس بقلبها بدون رحمة.

عرَّفها بزميلته الأخرى.

هالة الباقر، زميلتنا منذ أيام الجامعة..

وانتبه لموقفه المُحْرج. كيف سيعرّفها هي أيضا كما عرّف هالة؟.. يحفظ تقاطيعها، وتقاسيم وجهها.. ابتساماتها، وتورد خدودها عند الخجل، رنين ضحكتها، ونظراتها القاتلة.. لكن اسمها مجهول بالنسبة له حتى هذه اللحظة.. لم يدر ماذا يفعل.. وآخيراً، وجد نفسه يبتسم ويشير إليها بيده لتلتقط هي قفاز الحديث بذكاء، دون أن تشعر مرافقته عدم معرفته لاسمها، وتقول

مُعرِّفةً نفسها للصديقة وله أيضاَ:

أنا أريج محمود عبد الكريم..

ولم يمر عليه الاسم الذي نطقت به مروراً عادياً وإنما حرّض فيه نشوة غريبة..

إذن فهي ابنة مديره العام، لذا فقد كانت يومها بالطابق العاشر.. خَطرتْ له مجموعة من الخواطر والأفكار المتضاربة، لكنه تجاوزها ونفض ارتباكه سريعاً.. وقال موجِّهاً الحديث نحو هالة وباريحية من كان يعلم ويدري كل ما قيل أمامه من معلومات:

هذه ابنه المدير العام الذي أعمل بمؤسسته..

هالة بترحيب اجتهدت فيه كثيراً ليبدو غير مصطنعٍ:

جمييييل.. تشرفنا وفرصة سعيدة يا أريج..

وتابع هو حديثه بلكنةٍ لم تطمئن لها أريج، ووجّه الحديث إليها هذه المرة:

هالة هذه.. كانت نجمة في كليتنا، كنا ولا زلنا؛ نفتخر بها منذ أيام الجامعة، لأنها نجمة أولمبية وتشارك في الألعاب الدولية باستمرار وتابع بزهو رجل يُثني على محبوبته..

هي بارعةٌ في السباحة.. وفي أشياء أخرى كثيرة

قذف لها بمجموعة حِمَمِه سريعاً كأنه يشحذ همتها، ويهيء قلبها لتحديه القادم. حديثه الأخير جعلها تتساءل بينها ونفسها.. هل يا تُراه يحس بالسعير الملتهب داخلهاـ أو يشعر بما تعانيه؟.. تفرستْ في ملامحهما سريعا. هو لم يبد لها أية أحساسيس.. وهي مُدَرَّبةٌ وقادرة على معايشة التحديات. شعرتْ بأن مجرَّد تفكيرها بهذه الطريقة يبدو مُحبطاً. وأيقنت منذ تلك اللحظة، أنها كي تفوز وتكسب رهان عواطفها الهائجة، وتنجح في قلب طاولة الهوى على الجميع، يتحتم عليها أن تستمر في الاجتهاد باصرارها وعزيمتها القوية، وأن تسرج خيل مشاعرها جيداً لسهر المُحبين. كما عليها أيضاً أن ترفع من وتيرة رغبتها للتنافس المتوقع، لأنها موعودة بسباقٍ منتظر، على مضمار جري أولمبي صعبٍ وقاسٍ.

فكَّرتْ في كل تحدياتها القادمة. وجُملته التي قالها عن نفسه وعمله. إذن هو يعمل بنفس المؤسسة الحكومية التي يديرها والدها. كادت أن تقول له بانفعالها السابق الذي كانت تحسّه كلما مرَّ بها متعجِّلاً، أوالتقيا بردهات المؤسسة: يا ليتني كنت أعلم بذلك منذ أن لمحتك فيها هنالك أول مرة!!.. طردت كل هذه الخواطر. وفي محاولة منها للاطمئنان على نفسها، همست بإيجابية المتحفز لمباراة فاصلة:

سأظفر بقلبه، حتى ولو كانت مُنافِستي بطلةً أولمبية، تجيد كل فنون الحياة، وليست السباحة فحسب..

* * *

كما هي عادتها التي لن تتخلى عنها أبداً، بعد إكمالها للمكالمة الهاتفية وفراغها من الحديث مع الطرف الآخر، تضع وداد سماعة الهاتف على المكتب، ثم تتكئ على الكرسي الوثير بمكتب السكرتارية، في مواجهة المدخل الرئيسي لمكتب المدير العام، وتمد جسمها الذي يزيّنه صدرها المثير، تاركة نفسها في حالةٍ من الاسترخاءٍ التام. في هذه المرة؛ وبأريحية تامة، زادت من درجة اتكاءتها وجعلت الكرسي يرتاح بصورة أكبر، وأخذت لرئتيها نفساً عميقاً بلخِّص عمق مأساتها وفشل تخطيطها الأنثوي الماكر الذي لم يوصلها إلى أهدافها وأشواقها. ساقها الشغف بعيداً، لمراتع صباها وعبثية الأحلام، حيث الدلال البرئ، واللهو العميق مع رفيق الطفولة وحبيب قلبها القديم. تذكَّرت ماضيهما وهما يلعبان ببراءة حول حقول الورد، وفصول العشق الطفولي، والينابيع النرجسية، وتلك البراءة الجميلة.. سرحت بعيداً.. إلى أن سمعت صوت المدير ينادي عليها ويقطع بتِلات أحلامها. هرعت إليه سريعاً، عادت مبتسمة، رفعت سماعة الهاتف من جديد. حرَّكت رقماً محبباً إلى قلبها، تكلمت مع الجانب الأخر، أنزلت السماعة من أذنها، وجدت نفسها تبتسم دون وعيٍ منها. شاهدت بعض الفراشات تتجول حول بواكير عواطفها، راسمةً على الفضاء الرحب حقولاً من الورد وجدائلَ من الأحلام، ظلت تتراقص منحنيةً أمامها وتطلب منها التقاط اللحظة القادمة وتوثيقها. أسرعت لتفتح درج مكتبها الأيمن، أخرجت منه شنطة يدها الجلدية السوداء الصغيرة التي اشترتها من محلات قريبها صاحب محلات (Wonderful)، القابع بسوق الجلود الشهير، بعد استلامها لآخر حافز بالمؤسسة، واتفاقها مع قريبها على تقسيط الجزء المتبقي لشهور قادمة. تناولت علبة مكياجها الصغيرة. أسرعت بإخراج أحمر الشفاه، بدأت بصبغ لونه الأحمر الوردي على شفتها العليا. كانت تتنقل برشاقة حول حدود فمها، تحولت يدها باتقان إلى شفتها السفلى، إلى أن أكملت عملها بشفتيها الإثنتين، وصبغتهما باللون المطلوب مع مراعاتها لاختلاس النظر في المرآة الصغيرة بيدها اليسرى المنصوبة أمام عينيها، ظلت تمزمز شفتيها وتحركهما، تلامسهما سوياً بمرونة وخفة واحتكاكات مثيرة لمن يراها، مازجةً ما صنعته من أنوثةٍ موحيةٍ وقاتلة. وفي النهاية؛ شدَّت بلوزتها ونظرت إلى ما بين عنقها وفوق خصرها. ابتسمت للمرآة، ثم رشَّت عطراً خفيفاً من ماركة عالمية لكنها مقلَّدة، وجلستْ منتظرةً لقدومه بلهفة.

* * * *

بلا مبالاة، ودون أدنى اهتمام كان إبراهيم وهبي ينظر لاستمارة تقييم الأداء الخاصة بالموظف سليم عوض السيد الذي أكمل سنته السادسة بالعمل ولم تتم ترقيته حتى الان. بالرغم من أن لائحة المؤسسة تنص على استحقاقه

للترقية منذ ثلاث سنوات مضت. هو يعلم بالأسباب التي تجعل مثل سليم هذا يقفون عند نقطة واحدة، ولا تتحرك مسيرتهم نحو التقدم في السلم الوظيفي. يسميهم بمساكين الخدمة العامة، وضعفاء العمل بالمؤسسات والشركات. يصفهم بالصامتين والمتسمرين. تجد الواحد منهم واقفاً في مكانه، لا يقدر على فعل أي شيء. إن تحدث رؤساؤهم، أو ضحكوا لنكتةٍ لا ينبسّون ببنت شفة. متصحرون، وجامدون. لا يمازحون ولا يحاولون إضفاء أجواء المرح على رؤسائهم في العمل. وسليم بالإضافة إلى كل ذلك، قوبل منذ دخوله الأول بلهجةٍ حادة لأنه وحيد ولا ظهر له بالمؤسسة.. الكل يعرف حكمة المؤسسة والعمل بها. يقولونها في أحاديث المجالس الخاصة: *إن لم يكن لك هنا ظهرٌ تستند عليه؛ فستضرب على قفاك باستمرار. حتى إن كنت متحلياً بالصبر فانك لن تستطيع الصبر طويلاً، ستقع في النهاية بسبب كثرة الضرب، أو ستغادر المؤسسة غير مأسوفٍ عليك*... الكل يلعب وَفْق مصالحه ومصالح من ينتمي إليهم. هم يحمونه.. وهو يحمي مصالحهم.

كان على ثقة بأن سليم شخصيةٌ بريئة. قد تكون قدراته عالية، وفهمه للعمل ممتاز. لكنهُ لا يُجيد لعبة المصالح، التي أجادها كثيرون غيره، فصعدوا، وأصبحوا من كبار الموظفين بها وما يزال هو في موقعه الذي تعين فيه قبل سنوات.

عُين سليم في بداية عمله بالمؤسسة محاسباً، رفضه رئيس عمله المباشر بحجة عدم معرفته لأبسط قواعد المحاسبة، فتم تحويله إلى العمل في مواقع مختلفة، لا تناسب قدراته ولا تشبه ميوله. أثار ضجةً كبرى بعد موقفٍ بسيط حُسب عليه لأنهم زعموا بأنه لم يحترم عميلا متبجحاً أساء له وللمؤسسة ولكل شيء فيها، وبدلاً عن رد اعتباره وتقييم دوره في رد اعتبار المؤسسة التي أهانها العميل المتبجح؛ تم تأديبه بنقله إلى موقعٍ إداريٍّ آخر، مكتب بعيد وسيء السمعة. يكرهه كل الموظفين، لأنه في عُرفِ من يعملون بالمؤسسة؛ لا يضم إلا أولئك الميؤوس منهم، وكان سليم وفقاً لقرار النقل الصادر أحد هولاء.

هو قصير في قامته. بسيطاً وبشوشاً. حينما يقابلك؛ يتحدث بروحٍ مِلؤها التفاؤل والقناعة، لا يشتكي ولا يغضب، صبوراً ومتديناً، ومُلمَّاً بتفاصيل العلوم الشرعية، كثيراً ما يُسمع وهو يتلو القرآن، أو يسمعهُ أثناء فترات الدوام، لدرجة أنه أغضب المدير العام في إحدى المرات. بعدم انتباهه للحظة دخوله، ووقوفه أمامه، وعدم اكتراثه لمخاطبته إياه، حدث ذلك وسط دهشة كل من شهد الموقف. لأن السماعات التي كان يضعها على أذنيه، واستغراقه في سماع الذكر الحكيم كان قد منعه من الانتباه لأي شيءٍ آخر.

***

يأتي عاصم داخلاً بعد مهاتفة السكرتيرة وداد بدقائق. يلحظ منذ دخوله الأول

بالمكتب جَوَّها المهيأ للانديا‌ح والتداعي. مهتمةٌ هي بزينتها المفرطة التي لا تُخفى على أحد، يعلم أنها فعلت كل ما بوسعها من تَجمُّل وإدهاش للفت نظر رجل تحبه، وتأمل في الظفر باستمالة عواطفه، تجتهد في ذلك، وفق ما يتاح لها في مؤسسة تُعتبر محافظة في طابعها العام لدرجة أن معظم العاملين بها يلجأون للإعلان عن خضوعهم، بل والتأكيد على ولائهم والتزامهم المؤسسي؛ باختيارهم لأدعيةٍ ماثورة، ومفردات ذات معانٍ وإيحاءات دينية وصوفية، ووضعها كنغمات رنين بهواتفهم المحمولة.

تتحايل هي عليه وتشتغل بفنون الجذب والإغراء. تطلب منه في بعض المرات الحضور إلى مكتبها، وتتعلل بأنها لا تستطيع مغادرة المكان، وخصوصية وظيفتها التي تفرض عليها متابعة شئون المدير العام. يذهب فلا يجد سبباً لمناداته. تتحجج بعطلٍ في جهازها المحمول، يفتحه فلا يجد به عُطلاً مؤثراً، وفي مراتٍ أخر تطلب منه تحميل بعض البرامج على جوالها، أو جهاز الحاسوب الشخصي الخاص بها، تفتح معه موضوعات لا تتعلق باهتماماته أو عمله، لدرجة أنه في كثير من المرات يحمل كل ما تطرحه عليه من مشكلات، ويذهب به لموظفي إدارة التقنيات الفنية والحاسوب، وهي تعرف بأنها إدارة قائمة بذاتها، وبإمكانها التواصل معهم بشكل مباشر، فيكتفي بالمتابعة حتى تنجح المعالجة ويرجعه لها مستغرباً، لأنه لا يرغب في إحراجها. يلاحظ هو ذلك التناجي الروحي الذي يتلبسها، وتتقمصه، في كل مرة يأتى فيها إلى مكتبها. وفي كل محاولة تجرِّبها معه؛ لا يُقْدِم هو على أية خطوة إيجابية، ولا تمل هي من مطاردته، أو تتعب.

يحييّها بتحيةٍ عادية، ترد بفرحتها الغامرة كالعادة. منتبهُ هو إلى أنها قد حادثته قبل قليل وأبلغته برغبة المدير للحضور بمكتبه، لكنه يقرر أن يسألها حتى يغيِّر جو المقابلة ويتأكد:

* هل طلبني المدير حقاً..؟*

ترد بدلالٍ لا تُظهره إلا أمام من تعشقهم، وتذوب خبالاً بهم:

نعم طلبك.. وتشير بإصبع سبابتها بغنج وأنوثة..وتكمل *أنت بالذات.*

تقوم من مكانها وتشير بيدها إلى الباب، وهي تتماوج:

تفضل معي..

وقبل أن يتحرك هو أمامها تتعمد إيقافه بيديها. تقف مثل نخلةٍ شماء، تشد جسمها المثير بتقسمياته التي تحرِّك كل جزئية فيه غيرة التي تجاورها. تؤشر له بيدها ليتبعها.. وكأنها كانت تخطط وتتنظر لانتهاز هذه اللحظة التي أتيحت لها، تتجه نحو الباب، تتثنى أمامه مستعرضةً في مشيتها الإيقاعية الموزونة كل فنون التطريب الغريزي الجنسي المفضوح. تتحرك مخلفةً وراء جسمها عجيزتها المفصَّلة للإغراء والإثارة. تتمايل. تتهادى. يرى ما تحت فستانها

مفصلاً أمامه. يتهيأ للعبور بخياله إلى ما وراء الاكتناز المهول الذي يراه أمام عينيه. يطير مُحلِّقاً بأحلامه بعيداً. يسبح بين ألوان غرفة نومهما البنفسجية، وشراشفهما الحمراء، والستائر الوردية.. لكنها تُوقف أحلامه فجأة وتقطعها بوصولها لباب مكتب المدير العام، وتلتفت مواجهة له، ثم تفتح الباب ببطاقة ممغنطة كانت تحملها بيدها، وتطلب منه الدخول. ينظر حوله. يتفرس في ملامحها، يكاد يتحدث، يتذكر تخوفاته من خطر الوقوع في شباكها، وكل شيء فكر فيه من قبل، فيمسك لسانه عن الحديث. يدخل ويتركها في سعيرٍ من نوع آخر.

- ٦ -

لم يكد يونس يشرع في جلب المياه والسطل والصابون للبدء في غسيل سيارة المدير العام حتى تبيَّن له أن هناك صوتاً يرن داخل السيارة. فتح الباب ومد يده تحت الكابينة، أخرجه متأملاً فتأكد أنه الهاتف المحمول الشخصي للمدير العام. كان هاتفاً أبيض وصغير. ماركة أيفون الأمريكية، يبدو جديداً لدرجة أن حامله يحس بأنه لم يستخدم من قبل.

أوقف يونس عملية الغسيل، فكَّر مليـّاً، ثم تحرك ودخل إلى سوق الهواتف المحمولة القريب من المكان ليغيب بعدها طويلاً. ثم عاد ليدلف إلى برج المؤسسة. يعرفه موظفو العلاقات العامة والاستقبال، وحتى حراس الأمن وكل العاملين بالبرج. سَلَّم على الجالسين أمام مكتب الاستقبال، وحيّاهم بتحايا صديق لأصدقائه، طلب كوباً من الماء المثلج فأعطوه من مبردهم الصغير. أعلمهم بنيته الدخول إلى المبنى لأمر عاجل فسمحوا له. تحرك نحو مدخل العمارة ووقف أمام المصعد. ضغط الزر الموجود على الواجهة بجانب باب المصعد. لاحظ الأرقام المضيئة التي تتبدل سريعاً. حركة المصعد كانت تذكّره دائماً بفلسفته التي توصل إليها بعد أن أتعبه التفكير الكثير في الدنيا وصيرورة الكائنات في الحياة. يجري بخياله عملياته الذهنية الفلسفية، ويفكّر فيها بتمعُّن. يجد نفسه يتحدث بهمس.. يتدرجون نحو القمة ببطء، ثم يهبطون بسرعةٍ خيالية. يحاول في كل مرة المقارنة بين سرعتي المصعد صعوداً، وهبوطاً. فينتبه لملل الصعود وفجائية الهبوط. يتساءل بينه ونفسه: هل يا تُرى السبب ناتج من جاذبية الأرض أم هو إحساس داخلي!؟.. يُشبهها في ذهنه بسرعة التدهور في حالة الإنسان عندما يحس بقرب نهايته التي تكون في الغالب أسرع مما يتخيلها الجميع. يهمس لنفسه بصوت واضح يمكن أن يسمعه أي شخص قريب: اللهم حَسِّن خواتيمنا..

يقف المصعد. يخرج منه أشخاص لا يعرف منهم سوى صديقه حسن فَكَّة الذي يعاجله بتحيته الفارهة التي اشتهر بها بين العاملين بالمؤسسة. يسلِّم عليه بصوته القوي فيلفت انتباه كل الذين خرجوا برفقته من المصعد. يردَّها يونس بتحيةٍ سريعة، مادًّا إليه يده اليمنى، ومحاولاً بالأخرى إيقاف باب المصعد قبل انغلاقه وتحركه نحو الأعلى. يتنفس بعمق بعد وقوفه وحيداً داخل المصعد. يضغط الرقم ويتحرك نحو هدفه. ينزل في الطابق العاشر، حيث مكتب المدير العام الفخيم. يقابله موظف الاستقبال بعد خروجه من المصعد مباشرةً. يبلغه بسبب الزيارة، فيسمح له بالدخول. يجد نفسه وجهاً لوجه أمام السكرتيرة الحسناء. وداد تلك الأنثى باذخة الإثارة والضجيج. يراها في أحلامه فاتنة مكتملة الجمال، ساحرة تفتن كل من يقترب منها. تبدو لقلبه كأميرة تنتظر فارسها القادم. يعرف أنه ليس بفارسها الذي تنتظره، لكنه يستمتع بكل لحظة شهدها معها بأحلام يقظته أو في خياله. يتلمظ بوجنتيها، ويتلاعب

بالشفاه، ويقلبها في لا وعيه، لتترسخ الصورة في أحلامه واقعاً يسعده انتظاره في المستقبل. تسأله عن سبب الزيارة وما أتى به؟.. يجيب على سؤالها مشيراً إلى الهاتف الشخصي الذي يحمله بيده. تعلم أنه من يقوم بغسل سيارة المدير العام منذ فترة طويلة، وقبل مجيئها للمؤسسة. تخشى لمس متعلقات المدير العام، وما يتعلق بها، للحساسية الشديدة التي تتوقعها وراء الأمر، تستأذنه في الجلوس والانتظار للحظات، ترفع سماعة الهاتف تحادث مديرها، وتبلغه بالأمر، ثم تأذن له بالدخول.

***

أكمل إبراهيم وهبي استمارة التقييم، ولم يحس بأي شعورٍ ايجابي لكتابة شيء جديد في مسيرة سليم التقييمية. ظل يردد كالببغاء نفس العبارات ويطبق أفكاراً وانطباعات معروفة للجميع بالمؤسسة. يُكتب السوءُ على كل من يصرِّح المدير العام بشأنه أمام الجميع، ويقول بأنه غير مفيد أو لا يصلح للعمل. الكل بعدها سيكرهونه ويلصقون به هذا الانطباع حتى نهاية حياته العملية بالمؤسسة. سليم وقع في هذهِ المصيبة.. لذا لم يجد وهبي عبارات جديدة تُناسب الاستمارة. فكتب سريعاً وبلا تردد أو تفكير:

(أداؤه ضعيف، إنتاجه قليل، غير متعاون مع زملائه، لا يقدر على إنجاز مهامه الموكلة إليه، ولا أرى أنه مستعد لتكليفات أكبر..)، وختم تعليقه على الاستمارة بعبارة حاسمة هي عدم استحقاقه للترقية.

***

يدخل يونس. يدلف إلى المكتب الفخم لأول مرة. يجد المدير العام في حالة انشغال مع خبرٍ تبثه إحدى قنوات الأخبار المعروفة. تدهشه شاشة البث المنصوبة على الحائط، فيتمناها في بيته المستقبلي. يحلم بمشاهدة أفلام هوليود وجميلات بوليود على شاشةٍ كبيرةٍ مثلها. يجد نفسه ما بين مصدقٍ ومكذب لما تتوارد في خواطره من أحلام يقظة جميلة. يعيش في حالةٍ من الدهشة غير المصنوعة. يجلس بإشارة لا يتبعها كلام. يجد نفسه وبلا وعيٍ منه؛ يتابع ما تبثه القناة الإخبارية بشغفٍ وانتباه مماثلين. ينتهي الخبر مع قذيفة تتفجر وتخرج مذيعة القناة في فاصلٍ إعلانيٍ سريعٍ بعدها.

من جديد، ينتبه المدير العام لوجوده.

أهلا بك يا يونس.

يقولها ملتفتاً نحو يونس، وكأنه لم يشاهده عند دخوله الأول.

يرد على ترحيبه سريعاً:

هاتفك الشخصي.. هاتفك المحمول يا سعادتك.. يبدو أنك قد نسيته بالسيارة.

لاحظ أنه كان مشغولاً جداً في الأيام الفائتة. تفرَّس في مُحيَّا من يجلس بجانبه، وأخذ يقارن بين هموم كل منهما. مشكلاته التي أرهقته، وأحلامه التي ما زالت تراوح مكانها. كان يشعر بالفارق الكبير بين شعوره في هذه اللحظة، وما يمكن أن يحس به أمثال الشخص الذي أمامه من سعادة لا تحدها حدود.

بدد صمتهما آخيراً قول المدير الذي بدا وكأنه يشكي حالته المرهقة، وروحه المتعبة:

أعاني هذه الأيام من صداع، لم تجد كل الفحوصات والعلاجات نفعاً.

وكأنما وجد يونس ضالته المفقودة.. فقد كان في حالة انتظارٍ طويل لمثل هذه الجُملة، فرصة لا تعوض ويجب استغلالها بذكاء. طرح عليه فكرة الاستنجاد بحسن فَكَّة الذي سيداويه لا محالة:

لماذا لم تستعن بنا، وتذكر لنا ذلك يا سعادة المدير.؟

ندت عن المدير العام دهشة أبرزتها لفتته وانتباهته بغرابة..

ها أنا ذا قد أبلغتك الان، فما الذي يمكن أن تفعله؟

يضحك يونس بثقة.. ويقول:

سترى بنفسك..!!

وفي برهة لم يستطع المدير استدراك ما حدث فيها، ولم يجد الفرصة لمنعه عن فعل ما فعله.. أدخل يونس يده في جيبه، وأخرج هاتفه المحمول، الذي لا يمكن توقع اسم ماركته من كثرة ترقيعه باللواصق المختلفة، ومعاناته الشديدة أمام تمسك صاحبه يونس به، وتحججه بجودة صناعته مقارنة بالهواتف الجديدة المنتشرة بالسوق. وبدا يتحدث إلى طرفٍ آخر بعيد:

كيف حالك يا شيخ فَكَّة ؟... يلمح نظرات المدير المستغربة..

ينتظر لحظات، يبتسم في البداية يصيخ السمع، ثم يتبع ذلك بضحكاته المجلجلة.. ويتابع:

أنا بمكتب السيد المدير العام، يعاني سعادته من صداع، هلا أسرعت وجئت إلينا.

اندهش المدير بما يحدث أمامه، ولم تمكنه المفاجأة من أن يبدئ اعتراضاً على ما قيل. يصمت ويقرر أن يجرب حتى النهاية.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى كان حسن فَكَّة حاضراً أمامهما.

جاء بابتسامته الوضاءة، وحاملاً مراسيله العديدة، على ورقةٍ صفراء سوَّدتها حروفه الركيكة، التي يكتبها عليها بغرض التذكير بالطلبات. جلس أمامهما. ثم قام وصب من صنبور المياه القابع بحمام مكتب المدير العام ماءً على الكوب

الذي كان موجوداً على طاولة المدير العام، ونثر عليه مسحوقاً أخرجه من جيبه، خلط ما في الكوب بمحلولٍ آخر كان يحمله بفتيل صغير، ثم طلب من المدير شرب ما صنعه. أمسك بعدها برأس المدير وقرأ عليه كثيراً من التعاويذ والكلمات. كان يثبَّت يده اليمنى واضعاً جبهه المدير العام بين إبهامه وسبابته، ويتمتم ببعض الكلمات والهمهمات التي بدت لهما وكأنها آيات معروفة من القرآن الكريم. كرر ما يفعله مرات عديدة واستمر لفترة زمنية ليست بالقصيرة. أحس المدير بعدها براحةٍ نفسية، أو ربما شُبِّه لهم ذلك. لم يكن هذا الإحساس كاذباً؛ لأنهم رأوا المدير بعدها بدقائق مرتاحاً يُعلن عن شفائه من الصداع.

***

تساءل كمال غريب وهو يخطو عتبات السلم الأخيرة مُقبلاً على مدخل المكتب الكبير، عن سبب استدعائه من قبل المدير العام. وظل في حالة من التوهان والتفكير العميق، فالموضوعات التي تَخُص وظيفته التي يشغلها نُوقشت معظمها داخل الاجتماع الأخير، ولم يتبق منها إلا القليل. وهذا القليل المتبقي تُرك لتتم مناقشته في الأسبوع المقبل، بل أن كل ما تبقى للنقاش ليس بالخطورة التي تجعل مدير المؤسسة يتصل به شخصياً ويطلبه بمكتبه الآن.

كان السؤال القديم لا زال شاغلاً لعقله، لماذا يقرِّبه المدير إليه؟..

أهو فعلاً في احتياج له إلى هذه الدرجة؟.. ظل محتاراً هكذا، وبدت له اللحظات التي يعيشها في تلك الثواني أطول مما يجب. كان مُستغرباً لكنه سرعان ما عرف السبب بعد رؤيته للملف الذي أمام محدثه على الطاولة. ملف القرض الذي طلبه لبناء قطعة الأرض الجديدة، التي امتلكها حديثاً بأغلى شوارع العاصمة، وفي الحيِّ الجديد على ضفة النيل. كان قد تناقش قبل ذلك بأيام مع والد زوجته، واتفقا معاً على الإسراع بالاستفادة من وضعه المريح بالمؤسسة، والتفكير الجدي في استغلال منصبه وظروفه الجيدة، بطلب قرض جديد يضاف إلى قروضه الكثيرة الأخرى بالمؤسسة. فقرر هو صباح اليوم أن يُسرع بتقديم الطلب، ليقيما سوياً مشروعاً استثمارياً ناجحاً. كتب طلبه، ورفعه للإدارة في زمنٍ وجيز. وكان على قناعةٍ تامة بحصوله على القرض كالعادة. وعندما نظر للملف أمام المدير، عرف سبب الاستدعاء، لكنه لم يكن يظن بأن ما حذَّره منه أصدقاء الأمس سيضحي واقعاً معاشاً ومؤلماً اليوم. لم يمنحه المدير فرصة استجماع أفكاره للمناقشة وإنما باغته بضربة ثنائية وقاتلة مرة واحدة:

للأسف لم أتمكن من منحك هذا القرض. يطلق المدير العام الجُملة القاسية عليه ويسكت بُرهة ليرى وقع حديثه المفاجئ عليه، ثم يواصل الحديث بلهجة غريبة لم يعهدها فيه خلال الفترة الماضية..

مجلس الإدارة - كما تعرف - وجَّهنا بتغييِر سياساتنا المتبعة في هذا الموضوع..

أراد كمال غريب مقاطعته، فاوقفه بحركةٍ سريعة من يده، ثم تابع:

منحناك، وبعض الذين أردنا أن نفيدهم قروضاً كثيرة وكبيرة. ومع أن اللائحة كانت تمنع ذلك؛ منحناكم إياها، وتعلم أيضا أنكم جميعاً لم تسددوها حتى الآن.

كمال بلهجة أشبه بالبكاء:

ولكن ما الذي استجد ليحدث ما حدث.؟.

وانتبه لنظرات مديره الخبيثة لأول مرة، كان واضحاً أن المدير أراد أن يشير إلى بعض التفاصيل الإدارية والمعاملات الأخيرة التي وقف غريب ضد تنفيذها، متحججاً بانها خارج الصرف وليست ضمن الميزانية. كان غريب قد أفحم مقدمها بحديثه الطويل، ناقشه حول المفاهيم المحاسبية التي لا علاقة له بها، ونسي أن الأخير كان مأموراً لا آمراً ومن المؤكد أنه قد أبلغ مديره بكل ما قاله. لماذا يحدث له كل ذلك، وهو الذي يريد أن يقف ضد سلوكيات بعض الإداريين السلبية!!؟، لماذا؛ وهو المسؤول المالي ويعرف مردودها السالب على المؤسسة، التي يأكل هو وكل الموظفين الذين يعملون بها من نجاحها وأرباحها ومسيرتها الظافرة.!! كاد أن يشرح له المسألة كما عنت وبدت له، لكن الأمر بدا له أشبه بالوقوع في مصيدة لم يتحسَّب لها. هم يعلمون بأنه لن يقدر على الاعتراض لأنه غارق في ديون المؤسسة حتى أخمص قدميه، وحتى إن تشجَّع ورفض الآن؛ فإن أول ما يمكن تَوقُّع حدوثه هو خسارته للكثير من الأشياء.. عمارته الجميلة، وحديقته، مزرعة الدواجن، ومنتزه الأطفال الكبير الذي أوشك على افتتاحه، وعربته، ووضعه الاجتماعي. فكَّر في كيفية تجاوز هذا المُنحدَر الحاد في وضعه ومكانته الاجتماعية إن حدث ما يقوله المدير، وطريقة الخروج من قمقم ديونه المستقبلية الكبيرة. سيكون لا محالة في وضعٍ لا يُحسد عليه، بل لا يمكن تصوره. إذن فقد أرادوا الضغط عليه لاستمالته إلى صفّهم وتمرير ما يريدون.

استرجع في ثوانٍ معدودات كل ما سمعه من إمام مسجدهم العتيق في خطبة الجمعة الماضية، عندما قال لهم بأن المرء ليس ضعيفاً. ودائماً ما تكون أمامه الفرصة ليقول لا ويُبعد نفسه عن الوقوع في الخطأ. تَذَّكر ذلك وعلم أنه الآن قد دخل إلى المنعرج الخطير.

لم يتركه المدير يهنأ بما كان غارقاً فيه من انشغال، لأنه أخرج من درج مكتبه ملفاً كبيراً، أحمر اللون، ووضعه أمامه قائلاً في ثبات وتحديٍّ المنتصر:

هذا الملف ينتظر تعليقكم، تعرف أنها معاملة مالية. ولابد من وجود توقيع المدير المالي لصرف مستحقاتها.

وانتبه كمال لشكل واسم الملف، إنه آخر عملاء المؤسسة الذين قُدمت له ملفاتهم فآثر بسبب شكوكه حول بعض تفاصيل عمل الشركة المتقدمة لصرف استحقاقاتها؛ تأجيل التعليق عليه حتى يستفسر من بعض الموظفين الذين تعاملوا مع هذه المشاريع. كانت الشركة تقدم خدمات الدعم الإلكتروني والصيانة لنظام المؤسسة وتطلب شهرياً مبالغَ كبيرة، بينما لم يحس هو بوجودها بتاتاً. طالبهم قبل ذلك بإحضار شهادات التأسيس وكراسة المعلومات كجزء من حقه وحق مؤسسته، لمعرفة من يتعامل معهم لكنهم رفضوا التعاون معه، وظلوا يطالبونه بالتعامل معهم كما جرت العادة.. لماذا يطلبون التعامل مثلما تجري العادة، ولا يقبلون بتوضيح الأمر؟.. انتبه لشيء لم يكن في باله في السابق. أغلب الظن أن صاحب الشركة، أو الشركة نفسها لها علاقة وطيدة بالمدير العام. عندما وصل بتفكيره إلى هذه النقطة، وحاول تذكر تفاصيل الملف؛ كانت المخططات والتحديات التي ستواجهه قد اتضحت له، وعرف أنه قد أصبح في غمارها، ومن الصعب عليه التراجع بعد ذلك.

***

ظلتْ أريج ساهرة طوال ليلها. كانت تفكِّر وتحضِّر نفسها للإيقاع بحبيبها في لقائهما المرتقب يوم الغد. مضت أسابيع ولم تفلح محاولاتها في الحصول على لحظة من الصفاء معه، أو جلسةٍ بريئة بقربه. كل ما تلقاه منه حتى الآن مجرد سلام وتحايا أمام الجميع. حتى كلماته تخرج عادية، ليس بها كلمات اللُطف التي تتمناها، أو تلك التأويلات التي تشير إلى اتجاهه في طريق يمكن أن تؤدي إلى إطفاء الحريق الذي يشتعل بداخلها. كل مقابلاتهما ولقاءاتهما كانت في قاعات الدرس ووسط زملائهما، وفي وجود هالة الأولمبية النشطة. لكن كل ذلك لن يثنيها عن التخطيط للإيقاع به.

في آخر مرة خططتْ للإيقاع به في شباكها؛ قررتْ أن تذهب باكراً وتجلس في الموقع الذي يختاره دائماً، جلستْ بالصف الأول، في مواجهة باب القاعة، وأمام المحاضر تماماً، انتظرته طويلاً، ظلت مُركزة نظرها على الباب أكثر من تركيزها على أي شيء سواه طوال المحاضرة، ولم يأتِ. غاب يومها وكأنه حُرُّ في نفسه. عذَّبها غيابه، بل كاد أن يقتلها. علمت في تلك اللحظة أن وجوده مع الفتاة الأخرى أفضل من غيابه عنها، حتى لو لم يمنحها مجرّد ابتسامة. وها هي تكرر نفس الخُطّة اليوم. تجلس للمرة الثانية أمام المحاضر، وتتجاهل ما يقوله من معلومات. تفتح شنطتها، تُخرج دفترها المزركش بالورود والقُبل الطائرة. تحاول إقناع نفسها بالكتابة ومتابعة المحاضرة. يُفتح الباب أكثر من مرة تلتفت مع كل صوت صرير لمراقبة القادم فتجده شخصاً آخر. تبكي ويدمع قلبها بالحسرة. تكتب نزيف مأساتها على الدفتر. بعد أن كاد انتظاره يقتلها. فكرت في البحث عن هالة وسؤالها عنه. خجلت من نفسها في البداية، لكنها تجوَّلت سريعاً وتفرستْ في وجوه

الجالسات بالقاعة، وعندما لم تجدها، توقّعت أن تكون جالسة في مكانٍ ما بالقاعة، وخاب توقعها، لأن اللحظة القادمة حملت لها مفاجأة من نوع آخر. فقد دلفتْ من باب القاعة وبرفقتها عاصم، دخلتْ وتبعها برونقه وإدهاشه، بدا على محيّا هالة وهما يعبران بخطواتهما مقدمة القاعة شيئاً من السرور والافتخار، تعمدتْ هالة أن تجلس بجانبها، وبعد أن جلست أفسحت له المكان الطرفي للجلوس، فَهِمتْ أريج أسلوبها لكنها صمتتْ وأحجمت عن ردة الفعل.

أشار لها هو بالتحية، كادت أن تهمس له بجُملةٍ تختصر كل ما بداخلها. فكّرت أن تقول العبارة التي قد تُخلِّصها من كل ضغوطها النفسية، الكلمات التي احتفظت بها متوهجة منذ لقائهما الأول، وظلت حبيسةً بالقلب، كسِرٍّ دفين مخبوءٍ بالفؤاد، خطر لها خاطر كتابة ما تحس به في ورقة وتسليمها له، لكنها اغتاظت من نفسها وحبست ما أرادت قوله في حلقها، وقررت في نهاية الأمر، أن تواجه وحدها مشكلتها التي تؤزم دواخلها، وأيقنت بعدم قدرتها على الصبر أكثر من ذلك.. وعقدت النيَّة على أن تشرع في الحل بعد هذه المحاضرة مباشرة.

- ٧ -

لا يخرج حسن فَكَّة كثيراً أثناء فترات الدوام بسبب اشتراطات الإدارة العليا، ولوائح المؤسسة، وتضييق الموظفين على حركته. يظل طوال اليوم في حركةٍ دؤوبة متنقلاً بين المكاتب، والمطاعم، والمكتبات، والبنوك. يشتري لذاك أكله، وللآخر صحيفة، ويسحب شيكاً لثالث، ويجلب طلباً خاصاً لرابع وهكذا حتى ينتهي اليوم، فيخرج مع حافلة الترحيل، التي تكون في كثير من الأحيان طوق نجاته من كثرة العمل. يعتذر بقوله المعلوم للجميع، *إن فاتني الترحيل سأضطر لدفع نصف راتبي للوصول إلى منزلي قبل آذان المغرب، أو عليّ المعاناة مع المواصلات العامة فأصل بعد التاسعة مساء*، وكان حديثه صحيحاً، لأنه يسكن أقاصي المدينه، في حدود ولاية متاخمة للعاصمة.

في هذا اليوم اضطر للاستئذان بسبب مرض ابنه الصغير، بعد أن أبلغته زوجته بعدم قدرة الطفل على التنفس بشكلٍ سليم. ومع أن مرض ضيق التنفس متكرر بالنسبة لهذا الطفل بالتحديد إلاّ أنه قرر الاستئذان والذهاب سريعاً.

كان في كل مرة تحدث فيها نفس الحالة؛ يأخذ الطفل ويخرج بعربة أجرة قاصداً المستشفى القريب فلا يجد ما يعالج به الطفل، ويضطر في نهاية الأمر إلى الذهاب إلى المستشفى الكبير بقلب المدينة، فيشخصون الحالة المرضية بأنها ضيق في التنفس ويشرعون في جلب المحاليل، وفتح أنبوبة الأوكسجين، لضخ الفانتولين بخياشيمه إلى أن تتحسن حالته، ويرجع في النهاية إلى وضعه الصحي الطبيعي، لتبدأ القصة من جديد، في يوم آخر، وبنفس الطريقة.

بعد إبلاغه بمرض الابن؛ دخل إلى مكتب الإدارة المسؤولة عنه، قائلاً لرئيسه المباشر:

أمه تعرف الإجراءات. لكن لابد من اللحاق بها وإنقاذ الطفل..

وقبل أن يكمل جُملته، تم له ما أراد ومنحوه إذناً بالخروج لمعالجة ابنه.

* * *

في العادة لا يطلب المدير موظفاً للحضور بمكتبه، لأن التعامل بينه والموظفين لا يتم بصورة مباشرة، وتقتصر تعاملات أغلب موظفي الشركة معه على مفوضيه من مديري الإدارات والمسؤولين الآخرين. بل إنهم لا يرونه في الغالب إلا عن طريق الصدفة أثناء الصلاة، أو دخوله الصباح وخروجه نهاية اليوم. لذا فإن عاصم كان مشغولاً بالتفكير عن كُنه الموضوع الذي جعل المدير العام يطلبه بالاسم للحضور بمكتبه.

كانت إذن المرة الثانية التي يدخل فيها إلى مكتبه بعد اللقاء الأول أثناء المعاينات التي سبقت تعيينه بالمؤسسة. أ ترى هو يذكرها جيداً مثلما يتذكرها

هو الآن؟..

وقف عاصم أمام المكتب، وحيَّا مديره بقوة مادَّاً يده اليمنى فصافحه واقفاً وأمره بالجلوس.

بادره المدير العام سريعاً:

لدينا مشاكل بسيطة ونريدك أن تتولاها ونحن على ثقة تامة في قدراتك وتمكنك من حلها..

خير إن شاء الله يا سعادة المدير، يرد عاصم بتوجس وأدب..

الموضوع الأول هو جريدة صوت الجماهير....

وقبل أن يواصل حديثه صمت لبرهةٍ وثوانٍ لكنها كانت كافية لتقذف بذاكرة عاصم إلى سنوات خلَتْ كان فيها مغرماً بالصحافة أثناء فترة دراسته بالجامعة. عندما كان يتحرك راجلاً ويقطع مشواراً يزيد عن الكيلومترين ليصل إلى مقر صحيفة صوت الجماهير. ويوصل إليهم مقالاً، أو تغطية لنشاط طلابي بالجامعة. أو يأتي إلى مقر الصحيفة محمولاً بدافع دعوة أحد الصحفيين لتغطية صحفية تخص نشاطاتهم الطلابية والثقافية. كانت صحيفة صوت الجماهير، منذ ذلك الوقت؛ وحتى اللحظة؛ متألقة ومتفوقة على كل الصحف في البلاد. كسبت أقلاماً كبيرة وأسماء معروفة بالوسط الصحفي. مضت السنوات ولم يفلح هو في أن يكون ضمن كوكبتها المهمة، لكنه ليس نادماً على كل حال، فهو الآن يعمل موظفاً بقطاع مختلف، وبوضع ماديٍّ معقول. انتبه وعاد يستمع إلى حديث المدير العام الذي كان قد عاد لإكمال حديثه عن المهمة.

من المؤكد أنك تقرأ الصحيفة، وربما تعرف مقرها..

رد بثقة:

بالتأكيد أعرفها وأقرأها كثيراً، قال ذلك وواصل مستفسراً: ما الذي جاء بالصحيفة؟

نشرت تصريحاً لي، وجاء التصريح في غير محله، فأحدث ربكة في وسطنا، الصحيفة أربكت علاقاتنا مع بعض الزملاء بالقطاع، قال ذلك ومد له نسخة من الصحيفة التي بدت عليها صورة محمود عبد الكريم واضحةً وكبيرة بالصفحة الأولى وبجانبها الخبر المعني.

كان المدير منزعجاً أحس هو بذلك بسهولة، وتيقَّن من حساسية الأمر بالنسبة له وللمؤسسة. وقبل أن يقول شيئاً؛ بادر المدير العام بالتأكيد:

نرجو أن تهتم بهذا الموضوع، وتجلس مع رئيس التحرير لتوضيح الأمر، ومطالبتهم بنشر تصحيح عاجل لهذا الخبر المزعج.

سأقوم بالمطلوب بإذن الله، قالها ليبعد حالة التوتر التي سيطرت على أجواء المكان. ثم في محاولة أخرى للابتعاد أكثر عن منطقة الحرج المزعجة، سأل:

والأمر الثاني؟..

انتبه المدير لسؤاله، وأخرج قلماً من جيب قميصه، انتزع بعدها ورقة صغيرة من المذكرة التي أمامه، وأثناء كتابته على الورقة أبلغه بالمهمة الثانية:

لدينا وفد قادم من أوربا، وعملاء يشاركوننا العمل سيأتون صباح الغد، ونطلب منك الحضور وتفريغ نفسك لتكون بجانبهم في بعض الأعمال والتفاصيل، البرنامج جاهز، وعليك بالعودة آخر النهار لأخذه من المكتب بعد الطبع..

لا توجد مشكلة، إذن ما الأمر الثالث؟.. عاصم بانفعال وجديَّة لم يتوقعها مديره.

الأمر الثالث سنتركه إلى حينه.

قالها المدير العام وكأنه شعر بحجم الثقة الكبيرة التي يتحدث بها عاصم. فاطمأن على قدراته وتأكد من نجاحه في الامتحانين الأول والثاني. وقرر ألا يثقله بأكثر من ذلك. وأكمل واقفاً:

بالتوفيق..

صافحه عاصم وخرج..

***

لم تتفاجأ زهور عندما وجدت اسمها ضمن كشف التنقلات الجديد. بل لم يُفاجئ وجود اسمها أحداً بالمؤسسة، فقد تعارفوا على تسميتها هي وعدد من زملائها الآخرين بزمرةِ المغضوب عليهم، كانت تلك المجموعة تضمها هي وصديقتها تماضر، ماهر عبد السميع، وجعفر المهدي، ورباب الحسيني. كانوا دائماً على رأس قائمة المغضوب عليهم بالمؤسسة. يتم نقلهم في كل مرة دون تخطيطٍ إداريٍّ مُحدَّدْ، وهاهم للمرة الرابعة خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة ينقلون لمواقع مختلفة. تتفق كلها في درجة السوء.

جعفر المهدي وعبد السميع ثنائي مدهش ومرح، لكنه غير محبب للإدارة العليا، بسبب ما يثيرانه من حديث ضد مسار العمل والسياسات الإدارية التي تنتهجها المؤسسة. تماضر بنظرهم كسولة ودائمة الشكوى، تستمتع بكل ما أتاحته لها لائحة المؤسسة من إجازات وإذونات. تتغيَّب كما تريد لكنها مُدركة لحقوقها، وتتجنب الوقوع في الأخطاء المحظورة التي يترقبونها للإيقاع بها وفصلها. لم تجد معها كل الحلول التي جربتها الإدارة. رباب كانت وحيدة وغير مدعومة بسند أو صديق. تعمل في صمت. وتدعو ربها بعد كل صلاة أن ينقذها

ويخرجها من دائرة الشر والمصائب. دائرة الأبالسة.. كانت تطلق عبارتها الحادة واصفةً المؤسسة بها أمام كل من تأتي في حضرته ذكريات تنقلاتها الكثيرة. تقولها بلا خوفٍ وتعلن للجميع بأن عملها بالمؤسسة كاد أن يقضي على ما تبقى من ضميرها الحي.

زهور مُطلقة، انفصلت عن زوجها بعد معاناة طويلة، استمرت بسبب الضغوط الاجتماعية وصبرتْ كزوجة مكلومة ومثابرة. عانت من مشاكل زوجها لسنوات، ولم تفلح اجتهاداتها طوال سنوات المعاناة في الإبقاء على زوج كابدت معه صنوفاً من الأذى والتجريح والألم، فقررت في النهاية حسم أمر حياتها وترتيبها بعيداً عنه. اكتفت من ذكرياته بابنتيها شهد وملاذ.

يتهامس الجميع عن أسباب النقل الذي يبدو لهم دائماً بأنه يتم من غير منطقٍ وبلا دراسة. يتداولون أحاديث قالها صادق عبد الرحمن، المدير الإداري بالمؤسسة. زعم فيها بأن التنقلات تأتي في الغالب لسد النقص ببعض المواقع التي تحتاج نوعاً من المعالجات السريعة، أو تتم لأحداث تغييرات هيكلية وجوهرية. لكن عندما سأله جبر الله عن الكشف الأخير الذي ضم أولئك المساكين، ردَّ على سؤاله وقال بأن حالاتهم خاصة، وهمس له في أذنه بالخبر الذي تنتظره كل المؤسسة:

هولاء المساكين الذين تسأل عنهم؛ نقلناهم بناءً على رؤية مرحوم، وبغرض التجريب والتأديب، مع إننا يائسون من إصلاحهم.

كان صادق يثق بأن طريقة الهمس التي اتبعها عند بثه للمعلومة بأُذن جبر الله كافية لتسويق وترويج أفكاره ومخططاته الإدارية. تَوصَّل إلى هذه النتيجة بعد العديد من التجارب، وقرر في النهاية استخدام أشخاص معينين للترويج، ونشر ما يريد من إشاعات وأخبار. وجبر الله أفضلهم في هذا المجال. هو رجلٌ خمسيني، ضعيف البنية، كثيف الشعر، تميل سحنته نحو الاسمرار. غير مهتم بهندامه. عندما يحكي يقف بشكله المائل ولا يرجع للاستقامة حتى يكمل حكايته. يصفه زملاؤه بأنه كائن اجتماعي مختلف. يمتاز بقدرات عالية عند الحديث. يتدفق بلا توقف. كان يمتلك موهبة كبيرة في الثرثرة. يدخل المكتب ممتلئاً برغبة الانتشاء، ويستمتع بدهشة من يحادثهم عند نشره للأخبار، وكشفه لفضائح الآخرين. لا يتحمل الصبر على أية معلومة جديدة، يحكيها بعد أقل من دقيقة للآخرين، ويسرد كل ما سمعه من تفاصيل، وأسرار، بكل أريحية. خُلق ليتحدث وكفى. كانت الإدارة العليا تمده بما ترغب في انتشاره من أخبار. وكان؛ من حيث يدري، ولا يدري؛ بوقاً قوي الصدى، وسريع التوصيل والبث. تصله المعلومة ولا تلبث رائحتها طويلاً حتى تجدها قد فاحتْ وعمتْ كل الدنيا. يتمتع بذاكرةٍ قوية، إن سألته عن معلومة فهي حاضرة عنده في كل الأوقات. يحفظ كل الأسماء والشخصيات والأرقام التي عبرت بالمؤسسة على مدار تاريخها، ورغم كل ذلك لن تستغرب عندما تجده

منتظراً لصلاة الظهر وجالساً بالمسجد قبل الجميع.

لم يُخب جبر الله ظن الإدارة ومنح الخبر قوةَ دفعٍ إضافية ليفوح عبر آلته المعهودة، فكان الجميع مهيئون للقبول به قبل صدوره في ورقة مُذيَّلة بتوقيعات المسؤول الإداري بالمؤسسة. كما أثلج انتشار الخبر صدر صادق، الذي لم يكن مُرتاحاً لسيطرة مرحوم بعد أن بدأت تتضح لكل الموظفين.

***

كان جو المستشفى خانقاً، بسبب روائح المنظفات الكيميائية، ونفحة مُطهر الديتول التي تبدو ظاهرة أكثر من أي شيء آخر. الطبيب المختص بدا مشغولاً بحالاتٍ متأخرة وأكثر سوءاً لأطفال آخرين مما جعل حسن فَكَّة يلحق بابنه قبل أن يبادروا بعلاجه ويحوِّله إلى المستشفى الكبير كالعادة. لم يكن ما بجيبه كافياً لتكاليف العلاج المتوقعة، خاصة وأن المستشفى الذي يقصده لا يتعامل مع حالات التأمين الصحي الذي يحمل بطاقته، لكنه يعرف طريقة استرداد ما يدفعه مقابل علاج أطفاله. سيدفع للمستشفى ثم يدخل للمدير العام متجاوزاً كل الخطوط الإدارية، ويحظى بتوقيعه وتصديقه على فاتورته بكل سهولة. الجميع كان يتساءل عن سرِّ هذه الحظوة الغريبة التي يجدها فَكَّة من المدير العام بشكل مستمر!!.. عرَّج قبل خروجه على صديقٍ له، وأخذ منه ما يكفيه لعلاج الابن بعد أن أكد له بأنه سيقوم بارجاع المبلَغ خلال أسبوع بعد استرداد قيمة العلاج. كان فرحاً لأن مؤسسته تمنحه حق العلاج كاملاً. كما تمنح نفس الحق لزوجاته الثلاث وجميع أطفاله، لكنها تمنعه عن البعض. انتبه لذلك كثيراً ولاحظ استغراب بعض العاملين بالمؤسسة خاصة عندما سألته السكرتيرة في واحدة من مرات زياراته المتكررة للمدير.

بعد أن ضخَّوا بأوردة الطفل بالمستشفى إكسير الحياة، وعادت له البراءة من جديد، شكر حسن الطبيب والعاملات بالمستشفى وخرج مع زوجته قاصداً الصيدلية التي يشتري منها الدواء في كل مرة يأتي فيها لهذه المستشفى. تبعته زوجته، زجرها وطلب منها الانتظار خارج المبنى ودخل وحده.. قبل الدواء؛ توقَّع أن يجد بالداخل معشوقته الحلوة، تلك الباسمة التي تفتح له مجرى تنفسه بحركة شفتيها قبل أن تعطيه دواء الأزمة والحساسية لابنه. يحس عندما ينظر إليها برونقٍ من الافتتان والبهاء الروحي، وينعم أمامها بحالة نادرة يسميها بالتَطَهُّر الكامل، ويصفها بالسمو الذي يعلو فوق مرحلة البكاء المقدس. يقول لصديقه أنه ممسوس بها، ويقسم له بأنه لم يستطع في كل زياراته أن ينظر إلى وجهها أكثر من مرة واحدة، لأنه على ثقة بأن الموت سيلحق به قبل إكمال نظرته الثانية، يُفصح عن آماله وأحلامه كلها في لحظة البوح هذه، ويؤكد بأنه مستعد لتطليق زوجاته الثلاث إن قبلتْ هي بالزواج منه وأذاقته حلاوتها.

دخل هذه المرة ولم يجدها. سأل عنها، فأبلغوه أنها قد غيَّرت توقيت عملها.

أصابه الحُنق من كل شيء لحظتها، اشترى دواءه سريعاَ، وخرج.

منح زوجته ابتسامةً كالحة ومكفهرة، وفجعها بنظرته الحادة التي لم تكن المسكينة تدري ما سببها. كان مُعكّر المزاج بالتأكيد. سألته هل سيرجع للعمل أم يذهب معهما إلى المنزل؟. صمتْ ولم يجبها لكنه أحَس بضجر نحو فكرة العودة معها إلى البيت وهو مجروح الدواخل هكذا، بينما كان يشعر بتشوقٍ غريبٍ نحو العمل.

***

بعد أن استمتعت زوجته برحلتهما الصيفية بجُزر المالديف، والتنزه بشواطئها الجميلة ورمالها الناعمة، والهُيام بين مجالي الحسن والخضرة التي اشتهرت بها تلك البلاد؛ عاد مرحوم من إجازته كئيباً لأنه تأكد من أنه قد فقد رجاء بنت خالته. علم أنها ذهبت لإحدى داخليات البنات، وانضمَّت إلى رفيقاتها من طالبات الكلية التي تدرس بها. شعر بتأنيبٍ حاد في ضميره لأنه وعدها بحياةٍ أفضل. غازلها وأوصلها إلى مرحلة من الحُلم البريء جعلها ترسم لنفسها واقعاً جديداً. منحها آمالاً بامكانية مواصلة دراستها، وهي في بيت الزوجية. لم يكن من الصعب عليه تخيُّل شعورها بعد الهوان الذي عاشته. فقبوله السريع بالهزيمة، وظهوره بهذا الشكل الضعيف أمام زوجته؛ كان له أثره الكبير على مسار علاقتهما، وجعلها تقتنع باستحالة تنفيذ ما اتفقا عليه، والتفكير في الهروب بعيداً. وحتى يمسح تلك الصورة الباهتة التي بدت لها؛ كان لابد من لقائها أو زيارتها وتوضيح بعض التفاصيل لتحسين صورته أمامها. سيفرغ اليوم من دوامه، ويتصل بها ليلتقيها ولن يخاف من زوجته هذه المرة.

ذهب إلى عمله مشغولاً بها، مّرَّ على الزملاء وبادلهم التحايا، بقى ببعض مكاتب أصدقائه المقربين. جلس مع صادق، وغريب. مازحهم بحكاياته السمجة، القبيحة. ظل قلقاً طوال اليوم يفكر في إعادة الأوضاع إلى نصابها، لم يُحبط، ولم ييأس من تكرار الاتصال برقمها حتى أتاه ذلك الصوت الذي ينبيء بأن رقم هاتفها قد توقف عن العمل. لم يعرف السبب في ذلك لكن من المؤكد أنها قد قامت بتغييره لتجنب وصوله إليها، أو أن شركة الإتصالات قد أوقفته لسببٍ ما.. اتصل برقمها القديم كثيراً، لكن الرد كان واحداً ومتكرراً..

* هذا المشترك غير موجود بسجلاتنا....*

كان الرد الآلي المبرمج، يتكرر بذهنه ويتردد لدرجة أنه بدا أقوى من كل الأحاسيس الأخرى التي يشعر بها في هذه اللحظة. كانت رجاء إحدى أحلامه المهمة، لكنه تيقن بأن جُبْنه وحده هو الذي أفقده متعة التحليق معها.

- ٨ -

بعد ما جال بنظره في مباني الحي الراقي الذي تحتضنه الضاحية الشمالية لعاصمة البلاد؛ وتجوَّل في شوارعه المنظمة؛ وقف عاصم أمام مبنىً جميل وأنيق يتكوّن من ثلاثة طوابق. نظر إلى اللافتة الكبيرة التي تزين واجهته. كانت جميلة وموحية بمستوى ما هو موجود بالداخل تماماً. ومتوافقة مع أجواء المنطقة الجميلة. كان المبنى محاطاً بحدائق وبساتين ممتدة وطائفة من الأشجار الظليلة. تعبق النسائم حول المكان بروائح الأزهار وأريج الورود. تفرَّس في أناقة المكان وسحره. هاله شكله وروعته. وأعجبه توفيق إدارة صحيفة (صوت الجماهير) ونجاحهم في اختيار هذا الحي والمكان، ليكون مقرَّاً جديداً للصحيفة، استحسن تحوّلهم إلى هذا المكان الجديد بعد انتقالهم من الموقع القديم الذي كان يتوسط السوق الكبير، حيث ضجة السابلة والعابرين.

كان قد تواصل مع الصحيفة، وأبلغ رئيس التحرير بسبب الزيارة وموضوع قدومه إلى مقرهم. أراد تنبيههم إلى الخبر المزعج الذي تضررت منه مؤسسته، وفكّر أن يستغل زيارته لتكون مدخلاً لتحقيق رغبته القديمة، والولوج إلى عالم الصحافة الذي يعشقه. فكشف لمالك رِفعت عن رغبته في التعاون مع الصحيفة فرحب بالفكرة واتفقا على هذا الموعد.

وعندما فتح له مدير مكتب رئيس التحرير الباب وسمح له بالدخول؛ أحس بأنه مُقْدِم في اللحظات القادمة على واحدة من أهم لحظات حياته، لأنه حلم كثيراً بالعمل في الصحافة، وكان يتمنى أن يكون واحداً من أساطينها ونجومها، لكن ظروف الحياة ضايقته، وقذفت به في مجال عمل آخر، بعيد كل البعد عن الصحافة والإعلام. فهل يا ترى ستتحقق أمنيته ورغبته بعد كل الذي مضى من العمر.!!..

رحب به مالك رفعت ودعاه للجلوس وقبل أن يبدأ معه أي حديث؛ خيّره بين المشروبات الساخنة والباردة. قال:

- قبل كل شيء؛ تشرب شاي، قهوة، أم عصير؟

فرد بعد تفكير سريع:

- أُفضل القهوة..

- جميل، عقَّب مالك وهو يرفع سماعة هاتفه الداخلي ليطلبها من ساعي الصحيفة. وسرعان ما كانت القهوة حاضرة أمامه.

في تلك اللحظة؛ تنبَّه عاصم وهو جالس بالكرسي المقابل لمكتب مالك رفعت؛ إلى الحائط الذي من خلفه. كان ممتلئاً بالشهادات الأكاديمية والتكريمات والجوائز ومتخماً باللقطات والمجسَّمات. لاحظ أن صورة مالك

رِفعت كانت هي القاسم المشترك في معظم الصور. فهو في إحداها يقف بجانب الرئيس، وفي أخرى بجانب وزراء، وكُتاب كبار، ونجوم مجتمع، وشخصيات مهمة، ويظهر في كثير من اللقطات متقلداً أوشحة ونياشين ويحمل شهادات وجوائز.

لم يكن عاصم يعتقد بأن مهمته ستكون سهلة لكن مقابله مالك رفعت، والترحاب العميق، وتلك الدلالات الخبيثة التي بدت في عباراته وثنايا حديثه عند جلوسهما معاً، وحوارهما ونقاشهما المستفيض، رغم قصر فترة التعارف التي كانت هذه الزيارة أولى عتباتها؛ جعله ينجح بسهولة في اختراق متاريس المهمة حتى أنجز ما أراد وخرج محملاً بالنجاحات.

***

لحق حسن فَكَّة بصلاة الظهر في موقع العمل. كان يخطط مسبقاً لذلك، فهو يعلم بأن مسجد المؤسسة يجمع في هذا التوقيت كل أطياف الموظفين والعمال، وحتى أعضاء الإدارة العليا. هو واحد من العاملين بالمؤسسة ويدرك طريقة تفكير معظمهم، ومستوى عقلياتهم. كان وما زال مثلهم يحافظ على صلاة الظهر بالمسجد كما يحافظون هم عليها، لأنه يدرك احتياجه للظهور بالمظهر الذي لا يجعله تحت رحمة الانطباعات السيئة. هو يعلم تماماً أن صلاة بعض الموظفين ليست إلا حركات يقومون بها شكلاً لا مضموناً. يفعلونها مخافة الفصل والتنكيل. هو أيضاً يفعل ما يفعلون. كان واثقاً من نجاح خطته. ففي هذا الجو يمكنه بث رسائله وطُعمه المُعد بعناية للمدير العام. بل يمكنه إنجاز كل الأهداف والأفكار التي يطمح في تحقيقها. سيدخل عتبة المسجد وفي باله موقع ومكان جلوس المدير العام. يحمل سبحته الطويلة المتدلية بخيوطها المسترسلة الملونة. يجلس بهدوء ويلتفت حوله ليحيّ بعض الموجودين بالقرب منه. يبدأ المأموم بإقامة الصلاة. يتوزع المصلون فيأخذ مكانه بالقرب من فريسته. يقف مكبراً، يركع، يسجد.. يركع .. يجلس للتشهد.. تنتهي الصلاة.. يفرغ من تسبيحه ودعائه. يلتفت نحو يمينه، يواجه المدير الذي يجلس بجانبه، يُطلق طُعمه الخطير عبر همسة على أذنه:

كان من حولكم خطرٌ كبير.. لكنه تبدد.. ويتبعها بعبارة مكررة * أبعدناه عنكم.. الحمدلله *، يقول جملته الأخيرة ضاغطاً على الحروف ومُحرِّكا سبحته بين أصابعه، كان يفعل ذلك متعمداً ايصال صوت طقطقة حُبيباتها لمن هو بالقرب منه..

يبحلق فيه المدير العام وينتبه للمكان الذي يجلس به ومن حوله بقية الموظفين. يُشير إليه بالحضور بعد الصلاة إلى مكتبه، يكرر طلبه ثم يعجِّل بالقيام والخروج.

***

تقتنع أريج في قرارة نفسها بعدِم جدوى الانتظار والصبر أكثر مما هي عليه.

تفكر في احتلال موقعها الذي أخذ منها - كما تقول – بقوة صبرها وذكائها. تُحادث نفسها. تناقش دواخلها. أنانية المُحب تفرض عليه ألّا يتنازل عن من يحبه حتى ولو كان منافسه الآخَر أكثر حُباً منه. هالة عرفته قبلها، لكنها لن تمنحه الحُب مثلما تحبه هي، نعم هي لا تدري حجم العلاقة الحقيقية بين هالة وعاصم؛ لكنها تثق بقلبها، ومتأكدة بأنها لا تحمل ما يوازي حبها له، أو هكذا بدا لها..

برغم تركيزها على إخفاء لوعتها واشتياقها له، تنسى وتسرع متهافتة. تسلِّم عليه، عيونها تحكي ما بها، يُحس هو بذلك ولا يشعرها بأنه قد فهم اختلاجات قلبها.

تتقدم نحوه.. تتقطع الحروف قبل أن تخرج من فمها:

هل فهمت محاضرة اليوم جيداً؟!!

يرد بثقة، وبرود:

بالتاكيد فهمتها...

يصمت.. وتصمت..

تبالغ الكلمات والحروف في إحراجها أمامه، عَبَراتها تسد حلقها، وتترقرق إلى الداخل وتسري في شكل حشرجات بكائية، وهمهمات مبثوثة.. يشعر هو بكل إحراجاتها وآلامها وأحاسيسها الملتاعة.. ويقرر في النهاية شروعه في عملية الاعتراف بحبها هو الآخر وتمهيد الطريق لها...ويخطو خطوة إلى الأمام:

فهمت الدرس بالقدر الذي يمنحني الاستعداد لشرحه لمن يريد..، قالها ومنحها نظرة ذات ألف معنى.

كان يحكي ويتحدث، ونسي أمر صديقته الأخرى التي اعتذرت وخرجت،...

أما هي؛ فقد انتابتها حالة تحول غريبة.. بكت دواخلها فرحاً، عزفت موسيقاها ابتهاجها بلحظتها البريئة، وتسلسلت العبرات سلسبيلا عذباً هذه المرة لتسقي خرابات روحها وتُحيِّيها بعد موات. لابد أن دواخلها ستحتفظ بحُبٍ أبدي لهذه المادة التي كانت سبباً في كسر حاجز صمت ترنيمات عشقهما وأعلنت هذا الفتح السعيد.. صمتت طويلاً.. وتركت لقلبها حُرية الرقص والتثني دلالاً على نغمات مفرداته الحنونة، المتواصلة..

كان يحادثها ويحكي عن تجربته، علاقته بهالة التي ستتزوج قريباً. عمله بالمؤسسة، وعلاقته بوالدها. الثقة والاحترام والتقدير المتبادل بينهما.

فأجأتها المعلومات التي جاءت كلها لصالحها، وعلمت بالعلاقة الزاهية التي جمعت أطراف وأقطاب نجاحها. كانت تظن أن الأقطاب متنافرة. كانت تعتقد أن والدها في اتجاه، وحبيبها الذي وصلت إلى فؤاده بعد معاناة لا يدركها إلا

من مر بتجربة مماثلة؛ في اتجاهٍ آخر. لكنها عرفت الآن أنهما قريبان من بعضهما. كانت على ثقة بأن بقية أعضاء أسرتها لن يرفضوا زوجاً بمثل مواصفاته.. انتبهت لأفكارها التي ذهبت بها بعيداً حتى شعرت بأن أمر زواجهما قد أصبح وشيكاً وقريباً جداً.

***

مشاعر؛ مندوبة مبيعات بإحدى شركات الدعاية والإعلان، عندما تتخطى العتبة الأولى من المؤسسة؛ يفوح عطرها المثير عابراً كل الطوابق والمداخل. عطرها الذي ربطه جبر الله بها، وأسماه باسمها، ووصل أمر تعلقه به إلى درجة أن يقوم بشرائه دورياً ويهديه لزوجته حتى يشعر بنفس دغدغة المشاعر والأحاسيس التي يحدثها له مرور مشاعر الحبيبة. يحكي ويقول بأنه يشعر بها أثناء ممارسته الحميمية مع زوجته فيتخيلها فرسه الجامح. عندما تدخل العتبة الأولى بالمؤسسة يعلم الجميع بأنها قد حضرت، تغيب أياماً ويبقى عطرها كما هو علامةً من علامات سحرها الفتاك. ترسو سفينتها بموانئ المؤسسة فترفع كل البواخر الأخرى رايات استسلامها، يُسراها تحمل في كل زيارة حقيبة جديدة بنفس ألوان طلاء أظافرها ولون ملابسها الأساسي، أما يدها اليمنى فهي مشغولة دوماً بهاتفها المحمول الذي لا يكاد يتوقف من الرنين طوال فترة تواجدها لقضاء معاملاتها. تلبس تلك الموضات المحببة لشباب هذا الزمان، بنطلون الجينز، والتونيك القصير. يعرفها جميع العاملين بالمؤسسة، يرفعون أياديهم ويحيُّونها حتى وإن كانت منشغلة بمكالماتها لحظة مرورها من أمام أحدهم. تحس هي بكل ذلك التبجيل الملكي بالمؤسسة، وتعرف قيمة كونها محطّاً لأنظار الآخرين، ومصدراً عَبِقاً يحني الرؤوس ويجعلها كلها في حالةٍ من الدوران المعلن والمستمر، تدخل متوَّجةً بأمارة المكان، وتخرج ملكة على الجميع. تفتخر بحُسنها الصارخ، غير البريء، وتستخدم فتنتها لتخرج حاملة نجاحاتها بإنجاز المعاملة التي أرادتها.

تبدأ كعادتها بصادق عبد الرحمن، تعلم أنه فريستها الأولى، تصطاده بسهولة ويُسر، تقتاده إلى ما تريد بخبرةِ صيَّادٍ معتَّق في مهنته، تطرق الباب، يسمح لها بالدخول، تسلم، وتجلس واضعة رجلها اليمنى على اليسرى، تترك شنطتها على رجليها وتضع هاتفها المحمول على منضدة المكتب. تطلب منه أن يجمعها بالمدير لأن مشروع شركتها الجديد عاجل ويحتاج إلى قرارٍ سريع.. تستخدم ذات الأسلوب الناجح معه في كل مرة..

أعلم بموافقتك على المشروع منذ مكالمة الأمس، لكننا سننطلق في شهر رمضان وأنت تعلم باستعدادتنا المبكرة والترتيبات..

يحاول كسب ودّها بمحاولةٍ يائسة ومكشوفة:

اطمئني.. نحن موافقون، وجاهزون لرعاية البرنامج.

تحس بعدم جدوى المواصلة بنفس الوتيرة، تحاول طرح فكرتها بشكلٍ مختلف هذه المرة:

مشكلتنا ليست في الموافقة أو عدمها..

إذن.. ما المشكلة؟

نحتاج للإسراع.. الزمن ليس في صالحكم..

قالتها والتفتت لترى اسم المتصل على شاشة هاتفها الشخصي، تعمدت الرد أمامه، ليسمع ما تقوله:

مرحبا..

.....

إذن.. فأنتم ستكونون معنا بالبرنامج.. !!

.....

جميل.. سأمر عليكم بعد قليل..

تضع موبايلها، وترجع إلى حديثهما الأول.. تقرر الاستمرار في تهديدها العاطفي وابتزازها المثير، تواجهه بنظراتها وتقول:

تترددون.. وسيسحبون البساط منكم..

يصله تهديدها ويضربه في مقتل. يترجاها عدم الاستعجال. يدير رقم الهاتف الداخلي، يطلب المدير العام، يشرح له أمر الرعاية الجديدة، فيوافق على الاجتماع السريع معها. تبتسم أمامه، تهديه أهزوجة شكر من غنجها ودلالها، يفرح ببلاهته التي تعرفها، بينما تسعد هي بنجاحها المستمر في هدم القلاع المنصوبة أمام دلالها وسطوة تدفقها غير البريء.

***

كان الاجتماع هذه المرة مختلفاً بالنسبة لعاصم لأنه سيُقدِّم به مجهوده الخاص. لأول مرة ستتاح له فرصة تقديم ورقة الإدارة وخطتها أمام الإدارة العليا ووسط زملائه. غياب مديره المباشر جعله في موقف المسئولية لتقديم الخطة. من جانبه لم يكن خائفاً أو مرتبكاً، لأنه كان يتحين مثل هذه الفرص للظهور أمام المسئولين وكبار المؤسسة. هو مؤمن بأن المجوِّد لعمله، والمجتهد، مهما كان مُحارَباً، أو غير محظوظ؛ إلا أنه سيجد يوماً ما فرصته لإثبات ذاته. وها هي الفرصة قد أتت، وعليه أن يستغلها ليعكس كل مهاراته وقدراته، ويثبت لهم ولبقية الموظفين مقدراته الفائقة في إدارة وتخطيط العمل بالإدارة الجديدة. كانت ربع ساعة فقط لكنها كافية لتقديم نفسه وتأكيد جدارته بكل شيء يحصل عليه.. ثقته في النجاح وجذب الأنظار كانت واضحة.

فبعد أن أقنع المدير العام بقدراته وأنجز الملفات السابقة التي أوكلت إليه فطن الأخير إلى إمكانية الاعتماد عليه في الامور الصعبة. ذهب هو في الصباح التالي للقائه بالمدير العام إلى صحيفة صوت الجماهير ونجح في مقابلة رئيس تحريرها مالك رفعت. استفاد من علاقاته ببعض الصحفيين العاملين معه، ونجح ببساطة في إقناع الصحيفة ليتم نشر تصحيح الخبر في العدد الذي يليه، كما أبلى بلاءاً حسناً عند زيارة الوفد الأوربي. فعل كل ذلك خلال الفترة الماضية دون كبير عناء، فكان ذلك هو المؤشر الجيد بالنسبة للمدير العام، فطلبه مرة أخرى وكشف له المهمة الثالثة، وهي تكليفه بتقديم هذه الورقة التي تحوي خطة الإدارة لهذا العام.

اكتمل عدد الذين دُعوا لمناقشة الخُطة. قدموه للجلوس في مقعد يجاور المدير العام. أمسك بزمام الأمور، مَكّنهم من الغوص معه في عمق أفكاره المرتبة. لاحظ صمتهم وتركيزهم على كلماته، مفرداته، تسلسل أفكاره، منْطِقه الذي يتحدث به وأسلوبه في الإقناع وبث ما يريد. غرقوا جميعاً في بحر دهشته وما يتسلسل من ثنايا حديثه أثناء شرحه للخطة.

تعقيباتهم وملاحظاتهم لم تتجاوز الثناء والشكر وتقديرهم لما قدمه من حديث وأفكار. أشادوا بأسلوبه وطريقته في العرض. قطع عليهم كل ذلك اقتراح عادل مرحوم ونيته التي فضحتها تعابير وجهه عندما رفع يده منبِّهاً المجتمعين لصلاة الظهر التي لم يكن قد حان موعدها بعد. كانوا قد لاحظوا جميعاً نظرات الغيرة ولمحات الحسد التي بدتْ على مُحيَّاه، وحركات يديه أثناء تقديم العرض من قبل عاصم. شعروا بتلك اللوثة التي انتابته عندما رأى انبهارهم بالورقة التي قُدمت وتصفيقهم المحموم. لدرجة أن كثيراً منهم خرج مندهشاً وجاء عقب الاجتماع ليسأل عاصم عن السرِّ الخفي الذي أفسد العلاقة التي بينه وعادل مرحوم، إلا أنه لم يكن يعرف سبباً منطقياً ليجاوب به عن تساؤلاتهم المنطقية. قال لهم فقط:

***لو كان هناك شيئاً ما فستكشفه الأيام*.**

* * *

يتحسس حسن فَكَّة مجموعة الأوراق المتكدسة بجيبه، ثم يطرق باب السكرتيرة فتسمح له بالدخول. يشير إلى مكتب المدير كالعادة. تمنحه الإذن، فيدفع الباب ويدخل المكتب متوقعاً تلك الحفاوة المعهودة من قبل المدير العام. تستغرب وداد في الأمر وتظل في تساؤلها الدائم من جديد.. كيف يُتاح لحسن فكَّة دخول هذا المكتب الذي يظل قلعة حصينة ومكاناً عليَّاً، بل ذروة استعصى بلوغها للكثيرين. كيف يُتاح له أمر الدخول بهذه البساطة وفي الوقت الذي يرغب فيه؟ وكيفما يريد؟!.

يجلس حسن أمام المدير العام ويبدأ في سرد الحكاية..

*ما شاهدته كان غريباً.. كان هناك غبارٌ كثيف يتجه نحو مبنى المؤسسة. يمر

بك ويغطيك فتسعل وتستنجد بصراخٍ عال وحولك كثير من الناس.. يحكي بتأملٍ عميق.. يصمت طويلاً كأنه يستجمع أفكار الرؤيا والحلم.. يبدأ بذكر بعض الأسماء، عادل مرحوم، صادق عبد الرحمن، وداد السكرتيرة، وكمال غريب.. وهناك امرأة أخرى لم أعرفها تكاد تلمسك في غير احتشام، العاملون يرون ذلك ثم يضحكون، وفي هذا الجو.. تلمحني أنت بعيداً وتناديني، آتيك وأجلس بين يديك، أفتح المصحف، أقرأ أمامك كثيراً وأكرر الآيات الأخيرة من سورة البقرة حتى تنجلي الأزمة.. وينبلج الضوء فتحمد الله وتشكرني*

يكمل القصة ويقول..

صحوت الفجر على هذا الحلم الذي ذكرته، وقرأت كثيراً من الأوراد لحفظكم وحفظ المؤسسة..

يدلق جملته العظيمة أمامه، ثم يقبض على راحة المدير العام ويُقَبِّلها..

يبعد المدير يده ثم يدخلها في جيبه، ويخرج ما بها من نقود غير محسوبة، ويضعها بسرعة لا إرادية في يد حسن فَكَّة الذي يتحدث بكلمات غير مفهومة، ويتبعها بطلب يصفه بالصغير.

بالأمس مرض الابن وذهبنا به للمستشفى.. يصمت ثم يواصل..

وأنت تعرف طبعا بقية الموضوع..

يُشير نحوه بالايجاب. لا يُفكر كثيراً قبل الإقدام على تصرف حيال ما يطرحه فَكَّة أمامه. الحقيقة أنه لم يكن مهتماً به إلا بعد علاجه للصداع المزمن الذي ألّم به قبل فترة، لكنه بدا يأخذ ما يفعله على محمل الجد، خاصة بعد أن أهمل له طلباً من طلباته في واحدة من المرات، فتقابلا صدفة بالمصعد ورآه يفتح ذراعية أمامه ويقول داعياً الله:

اللهم نسألك اللُطف بنا، ونشكو إليك أفعال الظالمين ونرجوك أن تُرينا فيهم حكمك...

قال دعوته تلك، ونظر إليه نظرة لم يفهم معناها إلا بعد أن حدثت له مشكلات صحية عديدة واضطر لأخذ فترة نقاهة خارج البلاد. وأيقن بعدها أن حسن فَكَّة كان السبب في كل ما حدث. ثبت له ذلك عندما قابله يضحك وكان يكرر ضحكته مع نفس الكلمات كلما التقاه بممر المؤسسة، فقرر أن يستميله ويستفيد منه.

يرجع من تأملاته.. ينتبه لما قاله فَكَّة، يطلب منه إخراج الفاتورة.. يدخل حسن يده في جيبه، يخرج الأوراق ويمدها له، يجدها ثلاث ورقات، طلب سلفية، مقدم الراتب، وفاتورة علاج الطفل. يبتسم المدير لذكائه ويتمتم بينه ونفسه. يخرج قلمه الأحمر السائل يوقِّع في كل ورقةٍ على حدة، ثم يكتب توجيهه بصرف كل ما صدَّق به لفَكَّه على وجه السرعة.

يشكره حسن فَكّة، ويخرج بغير ندم، ناسياَ بقية طلباته الأخرى، لأنه سيجد سبباً آخر للدخول إلى مكتب المدير العام وتصديق ما يريد في كل مرَّة.

- ٩ -

العاشر من فبراير كان اليوم الذي يوافق عيد ميلاد أريج. اقترح عليها عاصم أن يخرجا سويا للاحتفال بالمناسبة على طريقتهما الخاصة. عبَّرتْ له عن فرحتها لأنه أول احتفال يخصها ويشهدانه معاً. قالت له بأن طعم عيد ميلادها قد اختلف لأنه بقربها، وكانت في السابق تفتقد الرجل الذي يقف بجانبها. حدثته عن مشكلتها التي كانت تعاني منها، وهي عدم الإحساس بمتعة الحياة، بالرغم من توفر كل ما يمكن أن تتمناه امرأة في حياتها. وكانت هذه حقيقة سهلة الملاحظة، فكل الذي قد يلفت انتباه أنثى موجود بيديها، ومن السهل عليها الحصول على ما تريد، لكنها لم تحس للحياة بطعم قبل أن يدخل طارقاً باب قلبها. حَكَتْ له عن المجوهرات والسيارات والمقتنيات والجواهر. اعترفت له بأنها كانت تتشاجر مع صديقاتها بمجرد أن يذكرن أمامها حكايات عشقهن وأقاصيص حُبهن واشتياقهن لأحبائهن..

قالت ببراءةٍ وأسى:

هل تصدق إن قلت لك بأنني كنت أظنهن كاذبات!!. بل كنت أعتقد أن كل ما يقلنه عن الحُب مجرد تمثيل ولعب عيال..!!

تبتسم لوحدها بسذاجة مَنْ تذَكَّر ماضيه البريء وخجل منه، ثم تواصل:

تَخيَّل.. !! في مرة غَضِبتْ من أحدهم لأنه حاول التعبير عن حبه لي..

ضحك بعد أن تَذَكَّر مشهدهما بالمصعد، وتلك الصورة البريئة المتجهمة التي كانت بادية عليها لولا أنه سعى لتلطيف الأجواء وخلق تواصل يمَكِّنه من اختراق حصونها في ذلك اليوم، ورَدَّ على عبارتها:

هل ستصدقينني..إن قلت لك بأنني قد أحسست بذلك..

قالها ضاحكاً.. وأكمل بقية حديثه..

شعرت بعدم خبرتك وقِلَّة تجاربك العاطفية منذ اللحظة الأولى، كانت البراءة بادية عليك منذ لقائنا بالمصعد..

ندت عنها نظرة استغراب ودهشة وحملقت بعينيها، سألته:

أكنت ساذجة وبريئة لهذه الدرجة. ؟؟

نعم.... وانفجر ضاحكاً ومبتعداً عنها.. لحقت به ضربته بيدها.. تمازحا معاً، وضحكتْ كما لم تضحك من قبل.

جلسا بموقعٍ ساحرٍ وحالم على ضفة النيل، كشفت له في يوم عيد ميلادها عن كل شيء في حياتها..

* أتعلم أنني امتلك بيتاً وفيلا ومزرعة وسيارتين!!..*

يااااه..

لا تستغرب..والدي يكتب العقارات بأسمائنا..

يفهم أنها تقول ذلك لتعريفه بنفسها، وأسرتها، وبغرض التعبير عن مدى الحُب الذي يكنُّه والدها لأبنائه لا من قبيل المباهاة.. كان عشقهما متناسقاً، مستوياً على نارٍ هادئة، يجري حنينه مسترسلاً بالحب والهوى لينتهي بتلك النهايات السعيدة..

في ذلك المساء أعطاها كل ما يمكن أن يُقدمه فتىً مُحبٌ مثله لأنثى عشقها، ومنحته هي، ذلك السرّ المخبوء الذي يطلبه كل مُتيَّم بالعشقِ من فاتنته.

***

يطرق صادق عبد الرحمن مكتب المدير العام. يسمع صوته الذي يدعوه للدخول، يفتح الباب ويدخل ومن خلفه الدلال الباذخ المسمى بمشاعر.

كعادتها، تمشي ويسبقها عطرها الذي بدا مسرعاً أكثر من صاحبته هذه المرة، كأنه قد أُصيب بصبوة المحبين حالما علم بأنه يُكنَّى بها في هذا المكانٍ ويسمى باسمها. كانت قوية الشخصية. مندوب مبيعات لكن سُلطاتها بمؤسستها أعلى من مدير عام. ذكية ولمَّاحةٌ وخبيرة بأسرار العيون. لمحتْ ارتباكه الظاهر وأحستْ بذلك قبل جلوسها. ابتهجت لهذا الاستسلام السريع الذي يدل على فوزها الساحق، وضحكت من أعماقها.. كانت واثقة من نفسها ومؤهلاتها، علمتْ من نظرتها الأولى بأنه من ذلك النوع الضعيف من الرجال. رجلٌ في عمره وبمثل خِفته تكفي نظرة واحدة منها لإردائه قتيلاً، لذا تعمدت أن تحرِّك مشاعره لحظة الخروج من مكتبه. وكانت على ثقة بأنه ومنذ تلك اللحظة التي شهدت جلوسها قربه؛ سيجند كل المؤسسة لخدمتها ورعاية كل ما تطرحه شركتها من مشاريع قادمة.

ولأن الموضوع كان أسهل مما توقعتْ، فقد تم كل شيء في دقائق معدودة. وأصرّ على إكرامها رغم تعلّلها بالاستعجال وضيقِ الزمن. فاضطرت تحت إلحاحِه في النهاية للبقاء معه بعض الدقائق ومنحَته لحظات من الحنين الذي يشتهيه.

شربت معه بمكتبه عصيراً مثَّلجاً، ثم تأبطت غنيمتها واستاذنتْ خارجة..

***

كان ما يزال مشغولاً بما حدث بينهما قبل ساعات على النيل. توقع أن تهاتفه لتحكي له عن شعورها بعد ليلة الميلاد. جُملة من الأحاسيس المتضاربة كانت تَهتاج وتُقلق منامه. تفاجأ هو أيضاً بما فعلاه دون وعيٍ منهما، ذابا عشقاً، وحُباً وتماهياً، ولم تكن هذه طريقته في الحُب، ولا هي فكرته التي سعى لتنفيذها

عند بداية حُبه لها.

تَسارع دقات قلبه، ورعشة نبضاته، كانت علامة من علامات العِشق الجميل التي لا يمكن إنكارها، والشغف الذي أثبت لهما مدى اشتياقهما لبعضهما البعض.

عندما قرأ رسالتها على هاتفه المحمول:

شكراً.. لنبضات قلبك التي أحييت بها قلبي يا روحي، حبك سيقتلني يوماً ما.

لم يعرف بأي الكلمات يرد عليها، فقد كان مرتبكاً، ولا زال مستغرقاً في تفكيره العميق.. ما الذي فعلاه اليوم؟.. لماذا بحثا عن الحُب لإهثين وعندما تعثرا به ماتا من الارتباك!!.. ارتباكه يخيفه ويزعجه.. كان خائفاً، وكانت في ذات اللحظة الحالمة تحتضن هديته في عيد ميلادها، دُب أحمر صغير، قال بأنه أهداها إياه لأنه يذّكِّره بمعطف الفرو الذي أذاب جليد أحاسيسه منذ ذاك اللقاء الغريب.

كانت تجلس وحدها بغرفتها بالطابق الأول في منزل والديها، تسترجع ذكرى يومها، وتفاصيل الليلة المخملية الرائعة، فتحت كيس الهدايا الأخرى فوجدت ثلاثة كروت مزخرفة بالألوان. الأول كان يحمل اللونين الوردي والبنفسجي، وتطل من جنباته قلوب مضغوطة وبارزة من ظهر الكرت على الواجهة. فتحته فوجدته ممتلئاً بدفقات قلبه الشعرية. كتب لها بخط يده قصيدةً استلف إحساسها من شاعرها المفضل نزار قباني، ومع أنها كانت قد سمعت بعض جزئيات منها بصوت الفنان العراقي كاظم الساهر؛ إلا أن اختياره لمقاطع القصيدة والكلمات التي عبَّرت عن شعوره في هذا التوقيت جاءت حبيبة إلى نفسها. قرأت المكتوب:

***كلَّ عامٍ وأنتِ حبيبتي..**

أقولُها لكِ على طريقتي..

رافضاً كلَّ العبارات الكلاسيكية..

التي يردّدها الرجالُ على مسامع النساءْ

سوف لن نشتري في هذا العيد شجرة

ستكونينَ أنتِ الشجرة

وسأُعلِّقُ عليكِ أمنياتي..

وصَلَواتي.. وقناديل دموعي..

آهٍ.. يا سيدتي

لو كان الأمر بيدي..

إذنْ لصنعتُ سنةً لكِ وحدَكِ

تُفصّلين أيّامها كما تريدينْ..

وتسندينَ ظهركِ على أسابيعها كما تريدينْ

وتتشمَّسينْ..

وتركضينَ على رمال شهورها..

كما تريدينْ..*

وقبل أن تفرغ من قراءة كلمات القصيدة؛ وجدت نفسها تنساب مع صوت كاظم عندما صدح في مخيلتها شادياً وذابت مع لحن الأغنية وهي تنطق الحرفين الأخيرين..

ومع انديا‌حها وهيجانها اللحني؛ سمعت طرقات على باب الغرفة فردتْ على الطارق:

تفضل..

دخلت عليها والدتها تحمل كوباً من النسكافيه المُحبب إليها، وقالت ملمحةً إلى انتباهها:

ماذا بك اليوم.. لم تنزلي بعد عودتك من الجامعة، هل كانت محاضرات اليوم ثقيلة؟!...

ابتسمت، فكرتْ أن تحكي لها عن ما نالته اليوم من الدنيا، عن حبيبها الذي غمرها بالعشق والنجوى، وباح لها بكل ما تتمناه. عن سعادتها التي اكتملت ونضجت وحان قطافها، ردتْ على سؤال والدتها:

* بالعكس؛ المحاضر غاب عنا اليوم بسبب مرض زوجته، وقررت أن أنتهز فرصة غيابه لإنجاز بعض الواجبات..*

ومع أن ردّها لم يكن مُقنعاً لوالدتها إلا أنها تقبّلته، واتجهت نحو ما كانت تنويه منذ البداية:

تقدم لك عريس..

لا أريده..

وجدت نفسها ترد بارتعاشة وعصبية غريبة، ثم تتجه بوجهها نحو الحائط الآخر..

لماذا؟.. تسألها أمها..

قلت لا أريده, لا أريده، وقبل أن أعرف اسمه..

قالت ذلك لأنها تعلم بأن حبيبها لم يصل البيت. ومن المؤكد أنه لن يبلغ والدها بالمؤسسة بهذه السرعة، ودون علمها..

كاد أن يُغمى عليها عندما صرَّحت لها والدتها باسم العريس:

حتى لو كان هذا العريس هو.....

صمتتْ لتترقب ردة فعلها، لم تتفوه بكلمة.. حتى أكملت والدتها بقية العبارة:

حتى لو كان اسمه عاصم؟!!..

لم تشعر بما حدث لها بعد عبارة والدتها، لكنها وجدت نفسها مرتميةً تبكي بحضنها من أثر الصدمة والمفاجأة التي لم تكن تتوقعها، أخذت تنتحب وتسأل:

كيف عرفتم بذلك يا أمي؟؟..

ردّت الأم..

مَن شاهدوكما معاً، وأبلغوا والدك بذلك..

أريج بلهفة وخوف:

أين رآونا.. وما رأي والدي في الموضوع؟..

رآوكما تذهبان معاً.. أما والدك فقد ذكر بأنه شخص مهذَّب، طموح، ومن أفضل الشباب..

لم تكن أريج تعلم بأن والدتها سمعتها في إحدى محادثاتهما. ثم انتبهت وتلصصت عليها، وقرأت رسائلهما، وخمنت أنها تلتقيه، فأحبت أن تقترب من ابنتها، وخادعتها بهذه الحكاية لأنها أحست بأن هناك أمراً ما يشغلها ومنعها من النزول اليوم. فقررت أن تفتح الموضوع وتبدأ معها نقاشاً حول الأمر. لكن أريج في غمرة سعادتها بما سمعته من أمها لم تنتبه لتسألها عن الشخص الذي رآهما، وما الذي رآه في الحقيقة.. تتذكر فقط أن الدنيا لم تسعها في تلك اللحظة التي أطلقت فيها لروحها العنان، وتركتْ لشفاهها مُطلق الحرية لتقبيل كل جزء من وجه والدتها صاحبة هذه البُشارة السعيدة.

***

عند الثالثة والنصف ظهراً، يُسرع جميع الموظفين العاملين بالمؤسسة للحاق ببص الترحيل اليومي، عدا قلةً منهم، وهم الذين يمتلكون سياراتهم الخاصة. لم يعد عاصم بحاجةٍ إلى مثل ما يفعلون، فقد نجح أخيراً؛ وبعد قضاء خمس سنوات من العمل بالمؤسسة في امتلاك سيارة نيسان ماركة (ألتيما) بعد أن اضطر للاقتراض من عدة جهات. في البداية قام بتخطيط مسبق منذ شهور عديدة، بدأ بتوفير نسبة تصل إلى ثُلث راتبه، واستمر على ذلك لمدة سنة، ثم نجح في توفير أكثر من صرفة صندوق من الصناديق التي اشترك فيها مع شباب العائلة والأصدقاء والزملاء بالمؤسسة، بالإضافة إلى ما بقي من راتب الشهر الحالي. وفي النهاية؛ جمع كل ما خطط له ولم يستطع شراء العربة، فاضطر أن يقترض ما ينقصه من صديقه وكاتم أسراره حسام الشيخ الذي لم يبخل عليه بالمال، وتمكَّن بعد معاناة من امتلاك عربة تساعده في حركته

وتنقلات أسرته المهمة.

توقيت انتهاء الدوام يجعل الجميع في حالة حركة وتفاعل وعدم تركيز. قابلته وداد السكرتيرة بالطابق العاشر مستعجلة. لاحظ ارتباكها وتردد قلبها بين الوقوف للحديث معه واللحاق بالترحيل، لكن حيرته لم تطل. لأنها حسمت أمرها سريعاً واكتفت بحوارٍ قصير معه، واستأذنته على أمل مواصلة ما بينهما في الغد..

مبروك السلفية..

قالتها، وغمزت له بعينها اليسرى كما اعتادت الغمز عند محادثتها لصديقاتها وأصدقائها المقربين..

لم يفهم قصدها، أحس بأنها قد خلطتْ بينه وشخص آخر من بقية الموظفين. لأنه لم يتقدم بطلب سلفية. وليست له أية استحقاقات مالية يأمل في استلامها من المؤسسة في هذه الفترة..!!..

وجدته مشغولاً..أحسَّتْ بأنه لن يرد.. واصلت حديثها وهي تهم بالخروج:

أتمنى أن لا تنسانا بعد أن تصرفها...

قالت له ذلك، وخرجت بسرعة للحاق بالبص.

لم تكن هي المرة الأولى التي تمنحه فيها بعض المعلومات التي تخصه، فقد تّعوَّدتْ أن تفصح له عن القرارات الداخلية السرِّية دون أن يسألها، أو يطلب منها ذلك. دافِع الحُب عندها يبدو ظاهراً لدرجة أنه لم يسألها يوماً عن سبب اصطفائها له دون غيره من الموظفين. في مرةٍ سابقة صرَّحت له بالتصديق الذي تم لصالحه بالمنحة الدراسية بإحدى جامعات الدول المتقدمة المتخصصة في مجاله الأكاديمي. لم يصدقها ولم يحدِّثه شخص غيرها عن الموضوع حتى نَسِيَهُ. وها هي الان تفصح له عن سلفية لم يطلبها.. قالت له المعلومة وذهبتْ، وتركته في حيرة من أمره. فوقف عاجزاً.. ولا يدري كيف يعمل!؟.. وفي محاولة منه لطرد حزمة الأحلام التي بدأت تتقافز أمامه. وحتى لا يبني أوهاماً يحلِّق بها في سماء انتظاره، فيَقَع ويُصدم.. همس لنفسه مُعزيَّاً:

هي فتاة مجنونة بكل تأكيد، لابد أنها تخلط بيني وبين شخص آخر، وذهب لإكمال ما جاء من أجله.

* * *

كان اليوم مُرْهِقاً بالنسبة لعاصم، مليئاً بالبرامج والالتزامات الاجتماعية، بدأت بوادر زحمته منذ بواكير الصباح عندما أفزعته أصوات نحيبٍ وصراخ ليخرج فيجدها صادرة من منزل جاره عبد الستار الذي فارقت والدته الحياة. فاضطر للاتصال بهاتف المؤسسة وأبلغ مديره معتذراً عن الحضور في الموعد الرسمي لبداية الدوام، طالباً الإذن لتأدية واجبيه الديني والاجتماعي، ومواراة

جسد المرحومة الثرى، ثم البقاء بسرادق العزاء ومشاركة أهل الفقيدة حزنهم حتى موعد صلاة الظهر. مع التأكيد بأنه سيحاول بعد ذلك اللحاق بما تبقى من دوام وعمل.

حسام الشيخ، صديقه المقرّب، زميله في العمل ورفيقه بالمكتب، قرر أيضاً ألا يترك اليوم يمضي دون أن يزيد من زحمة برامجه، أبلغه قبل أسبوع بأنه قرر الزواج بعد أن اختار واحدة من جميلات المؤسسة، وأبلغ كل الأصدقاء والأهل، لكن ها هو الآن يتصل به مستعجلاً ويدعوه لحضور عقد قرآنه الذي فاجأه هو نفسه. ذهب أهله لزيارة عائلة الفتاة بغرض التعارف والخطوبة فداهموهم باقتراح حسم الأمر، وعقد القرآن، فوافق أهله وقالوا: *لا مشكلة طالما أن ابنهم قد اختار الفتاة من دون الآخريات، ولا اعتراض على إكمال مراسم الزواج*. كان عليه أن يذهب للعمل ثم يقود سيارته ويأخذ العريس حسام معه وأن يسافرا معاً لمسافة تقارب نصف الميل من العاصمة.

أريج أيضاً، غَضِبتْ منه بالأمس، بسبب انشغاله عنها، وعدم قدرته على الذهاب معها لحضور الفيلم الجديد، الذي حدثته عنه منذ فترة، ولم يذهب معها لمشاهدته، حتى كاد أن يتوقف عرضه بشاشات السينما. وفي النهاية استطاعت الضغط عليه والحصول على التزام منه بالذهاب سوياً ومشاهدة الفيلم مساء اليوم. وها هو يفشل في الوفاء بالتزامه. لابد أنها مُستاءة منه، ولن تقتنع باعتذاره. ستكرر عليه جُملتها الدائمة لا محالة، وبنفس طريقتها المؤلمة:

* تذكر أنك مَنْ يتسبب في فشل برامجنا بصورة مستمرة.. وفي كل مرة تفعلها تأتي بعذرٍ أقبح من الذي يسبقه*... ستقول له ذلك وتُطلق أمامه زفيرها المعتاد...

*....أُأُووف *..

اليوم أيضاً، هو ملتزم لوالده بأخذه عصر اليوم لزيارة قريبهم المريض بالمستشفى، وعليه أن يعتذر قبل خروجه ويؤجل المشوار إلى يوم الغد. والده يعرف صديقه حسام وسيدعو له بالتوفيق في أمر زواجه. لكن تكرار الأعذار، وعدم التوفيق في زيارة مريضهم في الوقت المناسب، سيسبب له حرجاً ويغضب والده الطيب في النهاية.

ما هو الحل إذن..

الله المستعان.. قالها ثم خرج.

- ١٠ -

جاء عاصم في يومه ذاك مبكراً إلى المكتب، وذهب بهدوء لمراجعة هندامه وربطة عنقه أمام المرآة. وما هي إلا لحظات حتى أتاه صوت حسن فكَّة، وسمع بالصدفة حوارهما معاً. خمَّن لحظتها أن الطرف الآخر لابد يونس.

سمعه يحادث شخصاً ما، ويقول ضاحكاً:

* كنت متأكد أنه مهما صبر على مرض زوجته فإنه سيضطر في النهاية للاستنجاد بي*..

يصمت ثم يضحك ضحكته الغريبة.. ويبدو أن محادثه في هذه اللحظة قد وافقه على ما ذكر، يتأكد له ذلك عندما يسمعه يضيف بصوت أكثر حِدَّة وقوة..

* طبعا.. بالتأكيد*..

ويشرع في ذكر التفاصيل..

* أبلغت الشيخ وتم فك السحر.. وقبضت المبلغ..*

*..... *

يجب أن نتقابل.. لتستلم نصيبك يا يونس..

لا يدري لماذا تَذكَّر في تلك اللحظة حكاية مرض والدة أريج، وصراخها المستمر، وحالتها التي أعيت كل الأطباء حتى بعد محاولات علاجها المتكررة بعدد من الدول. ربط بينها وما سمعه بالمكالمة. قالت له أريج أن أمها كانت تقوم ليلاً وتصرخ بأصوات غريبة، تنفعل في وجة الجميع، تدفعها قوة خارقة لتضرب وتكسر كل شيء أمامها، ولا ينجح أحد في الإمساك بها، أو منعها من الإتلاف والعدائية. لم تكن ابنتها لتحكي ما حدث بسهولة، لولا أن عرف ذلك عن طريق الصدفة، بعدما أطاحت في إحدى نوبات غضبها بجوال ابنتها أريج، وتسببت في عدم تواصله معها. فأغضبه ذلك وخاصمها إلى أن اضطرت أريج أن تحكي له تفاصيل مرض والدتها، وهي في حالة من البكاء المُمض.

فّكَّر بعد هذه المكالمة مباشرة في مواجهة صديقه يونس ومعرفة تفاصيل العلاقة الحقيقية بينه وحسن فكَّة. سيسأله عن حقيقة الحديث الذي يدور بالمؤسسة، وجلبه لشيخ حسن فَكَّة، وعلاجه للصداع الذي كان يعاني منه مدير المؤسسة. سيطلب منه توضيح كل الأسرار. سيهاجمه إن أنكر، وسيخيفه إن لزم الأمر، حتى يضطر للاعتراف، وإن ظل في إنكاره فانه سيبلغه بسماعه لتفاصيل مكالمتهما.

أحس بأنه أعطى الأمر أكثر مما يستحق، لأن يونس صديقه ولن يخفي السرّ عليه، حتى وإن كان يخشى من خطورة أسراره؛ سيقنعه بقدرته على كتمان

الأمر وعدم إفشاء سرِّه للآخرين.

***

تأمل كمال غريب الملف الذي يقبع أمامه على المكتب دون أن يصل إلى قرار بشأنه. وقف حائراً، أغلق مكتبه عليه لوحده، انتابته حالة غريبة فوجد نفسه يتحرّك لا شعورياً ببعض الحركات غير المفهومة، حالة أشبه برقصة المذبوح وفرفرته قبل الوقوع مضرجاً بدمائه وبلا حراك. بدا في غمرة أزمته وحيرته مثل درويشٍ هائم في حضرة شيخٍ جبار.. يلف ويدور حول مكتبه عشرات المرات. يفكّر باحثاً عن حل لمعضلته الجديدة. أفاق على رنة هاتف المكتب الداخلي, كان صوت المدير العام يأتي من الطرف الآخر:

هل أكملت التوقيع على الملف.. ؟؟

سؤاله لم يكن من ذلك النوع من الأسئلة التي تنتظر رداً، كان أشبه بالأمر، أو الفرمان الملكي، هو يدري ذلك، ويفهم المعنى، ويدرك فحوى الرسالة التي قصد إرسالها من خلال الحديث معه بهذه الطريقة.. عرف أنها اللحظة المفصلية التي عناها إمام الجامع بحيِّهم وسيكون لها ما بعدها..

إما القبول أو الرفض، وكل منهما له ما يترتب عليه..

إن قَبِل ومَرَّر الأمر، فسيكون وافق على كل السلوكيات التي كان يرفضها في السابق. وإن رفض فقد يخرج من الباب الواسع...

لطالما كان يفتخر أمام الجميع بأنه لم يضعف في حياته ولم يجامل، سهلٌ عليه الجهر بالحق في أيةِ لحظة.. فما الذي حدث له حتى يتردد في الإجابة..!!..

يسمع صوت المدير، بلهجته الحادَّة هذه المرة:

سأرسل لك من يجلب الملف.. لأن صاحبه ينتظرنا..

وضع السماعة، وجد قلمه يعلِّق بلهجةٍ منكسرة لم يعتد عليها ويكتب على حواف الورقة الأولى للمعاملة:

راجعنا ملف المعاملة، المشروع أثبت نجاحه في تطوير العمل الإداري والمؤسسي والمحاسبي، وهو مفيد جداً جداً، وحيوي. لذلك نرفع الأمر لسيادتكم للتكرُّم بالموافقة على ما جاء فيه، وصرف مستحقات الطرف الثاني كما تجري المعاملات والعادة..

وأعقبها بتوقيعه الذي أضحى من السهولة أن تجده بعد هذه الواقعة مرسوماً على كل المعاملات التي تَرِد مُحولةً إلى مكتبه، خاصة عندما تأتيه مصحوبةً بعبارة (تُرسل لكم الملف لإبداء الرأي)، الديباجة المعروفة التي يكتبها له المدير العام باللون الأخضر.

* * *

نادى عاصم على يونس الذي كان ممسكاً بفوطة الغسيل المصنوعة من قماش الدمور الأبيض. يعصرها بيديه ثم ينفضها في الهواء فيتطاير منها رذاذٌ خفيف. تجف قليلاً فيمسح بها بقايا الماء من على زجاج سيارةٍ بيضاء، ماركة هونداي، قابعة بركن البناية المجاورة لبرج المؤسسة. كان الودّ الذي بينهما يسمح له بممازحته لدرجة التدخل في خصوصياته العائلية، وفي كثير من المرات التي يكون فيها يونس قد غسل له عربته تجدهما يتمازحان ويتناقشان. بدأت علاقتهما في التحول نحو الصداقة الحقيقية بعد أن قرر عاصم أن يقترب من عالمه ويسأله عن حياته وأحواله الشخصية وأسرته، وسرعان ما توطدت العلاقة التي بينهما..

كان يوما غائماً، وهو خارج قبل انتهاء الدوام، وجده قد فرغ تواً من غسيل سيارته، نظر إلى السيارة بعدم رضا وقال:

لماذا لا تلمِّع سيارتي يا يونس مثلما تفعل بسيارة المدير العام ؟ قالها عاصم فاتحاً باب الحديث الذي يدرك بأنه سيحرك ساكن العلاقة بينهما، منتظراً منه ردّاً سريعاً وأتى كما توقَّع بطريقته المعهودة..

الحكاية من عربيتك.. يا عمك.. الفرق كبير من مرسيدس آخر موديل وكل السيارات الأخرى..

يعاجله عاصم في محاولة لتضييق الخناق وتأكيد الاتهام..

إذن نحن دون المستوى لذلك لا تهتم بسياراتنا.. يكملها ويبتسم في دواخله لأن العبارة تثير محدثه وتجعله يخرج عن طوره لإثبات عدم قصده لما تم فهمه..

لا هذا ليس قصدي، ما قصدته أن كل سيارة ولها خصوصيتها، نحن لا نتعامل مع الأشخاص بقدر ما نتعامل مع مستوى حداثة السيارة ولمعان الطلاء مرتبط بالحداثة والجدة.. و.. يعاجله عاصم قبل أن يكمل جملته..

سأصير مديراً يوماً ما، وسأرى إن كان تعاملك مع سيارتي سيتغير، ينظر إليه بجدة مصطنعة لملاحظة وقع العبارة عليه.. يرى تجهمه، فيبتسم بوجهه سريعاً ويحضنه ضاحكاً.. ويعتذر له بمحبة قائلاً:

دعنا نذهب لنتغدى معاً.. يبتسم يونس ويوافق في النهاية ويخرج معه لتناول وجبة الغداء.

يدرك عاصم أن التعامل مع أمثال يونس من البسطاء فنٌ لا يجيده إلا من امتلك بساطة القلب والروح. هكذا يبدو الأمر في ذهنه دائماً، يسعد بالتعامل مع ماسح الأحذية الذي يجلس قريباً من المؤسسة، ويحرص على مدّ جسور وصله مع معظم العمال والبسطاء بالبنايات المجاورة. لذلك فهم يكنُّون له

الحب والاحترام، ويبادلونه الصداقة والتعاون.

جاءه يونس بفوطته المبتلة ببقايا الماء، فتح له باب عربته من الداخل ودفعه بيده إلى الخارج ليجلس من الجانب الآخر. ثم طالبه بالصعود والجلوس على الكرسي الأمامي بجانبه، وقال:

* ما رأيك في وجبة سمك على النيل؟ *.

ومع أن الدعوة لم تكن غريبة على يونس، إلا إنه اضطر للتفكير لبرهة قبل أن يجيبه بالموافقة.

هل لديك عمل كثير اليوم؟..

يسأله عاصم وهو يهم بقيادة عربته وتحريكها خارجاً من زحمة السيارات.

*ليس للدرجة التي تمنعني من قبول دعوتك.. يقولها ضاحكاً، ثم يردفها بجملة أخرى، تتوافق مع حركة يده العنيفة التي أظهرها منفعلاً:

بعد الأكل يمكنني إكمال العمل.

لم يكن عاصم معتاداً على الخروج في هذا التوقيت المبكر من العمل، لكن سماعه لبعض عبارات حسن فكّة مع مُحَادِثه عبر الجوال؛ كانت سبباً في تسرعه وتخطيطه لهذا اللقاء، وعدم استطاعته الصبر إلى نهاية الدوام. يؤلمه أن الخروج من عمله بالمؤسسة أثناء الدوام؛ أمر يتطلب في غالب الأحيان كثيراً من الترتيبات، واجراءات الاستئذان المُذل، وبسبب التربص المستمر، والرقابة التي يعانيها بمؤسسة يتنافس فيها البعض لإفشال كل متميز؛ فقد ظل في حالةٍ دائمة من عدم الارتياح والانزعاج. تُشعره الأفئدة المترصدة والقلوب الضعيفة بالرثاء والضجر من بعض العاملين بالمؤسسة. وحالما كانت تلك الشخصيات تعرف بأن كرسيه فارغ تهرع بسرعة للوشاية به. وإن غاب عن مكتبه للحظات كانت الهواتف ترن والوجوه تتهافت لتتأكد من تأخره بالخارج وعدم رجوعه السريع للمكتب. كم كان يعاني من حالة الترصد الغبي وغير المريح، لكنه يتغابى عنهم، ويتركهم ولا يناقش الأمر.

كان مهجَّساً بمعرفة تفاصيل العلاقة التي تجمع يونس بحسن فَكَّة بعدما سمع بالصدفة حديثهما عبر الهاتف. العبارات التي سمعها تؤكد له أن العلاقة التي بينهما أكبر بكثير مما يتوقع الجميع. الكل بالمؤسسة كان يدرك بأن يونس هو من دل المدير على مهارات وخبرات حسن فكة، وتعززت هذه العلاقة بعدما نجح حسن في علاج الصداع المزمن، لكنه كان يشك بأن هناك سرّاً آخر يحملانه سوياً، وسماعه للمكالمة أثبت له بعض شكوكه، لكنه كان يبحث عن المزيد من التأكيدات.

***

وقف عاصم أمام المكتبة ليطالع أخبار الصحف، استفزته العناوين، معظمها

كانت تتناول فضائح الفساد المالي لشخصيات ورموز سياسية في البلاد. لاحظ مثل غيره من الواقفين بواجهة المكتبة؛ موجة التقارير والتحقيقات التي بدأت تتحدث في الفترة الأخيرة عن الفساد المالي والسياسي، وتكشف حالات نهب الأموال العامة، من قبل بعض الشخصيات السياسية، وأسماء تمثل رموز المجتمع، مبتدعة ما سُمي بفقه التحلل.

بدا له أن اهتمام الإعلام والصحافة بالفساد مدبراً للوصول إلى نتيجةٍ ما. الحملة على ما سُموا بالمفسدين، وظاهرة التحلل، تقودها صحيفة (صوت الجماهير) التي يرأس تحريرها الصحفي المعروف مالك رفعت. يتذكر أنه التقاه وقتما كانت هناك أزمة بين المؤسسة وصحيفته بسبب نشر الصحيفة لتصريحٍ خاطيء من حديثٍ مبتسر للمدير العام. وتسبب التصريح في بلبلة أزعجتْ شخصيات مهمة فكلفه المدير العام بمعالجة الأمر مع رئيس التحرير ونجح وقتها في إدارة الملف ببساطة، وقبلت الصحيفة نشر التصحيح الصحفي، وكانت المعالجة واحدة من أسباب قربه من المدير العام، وتكليفه بملفات أخرى مهمة. وسبباً في علاقته مع رئيس تحرير صحيفة صوت الجماهير، الذي اتفق معه على مشاركتهم العمل بالصحيفة لكنه لم يلتزم بالوعد حتى الآن. تذكّر كل ذلك؛ وهو يطالع عناوين الصحف أمامه. كانت أحلام الشهرة والكتابة للصحف المحلية ما زالت تراوده. أحس بأنه قد أضاع فرصة ثمينة من قبل. انتبه إلى أنه محتاج للإطلاع أكثر حول سيرة مالك رفعت الذاتية قبل الإقدام على لقائه في المرة الثانية، ستفيده المعلومات في العودة إلى الصحافة. هو صحفي كبير ومشهور، والكل يعلم قيمة الجوائز والشهادات التكريمية التي حصل عليها. سمعته تطغى على أي حديث آخر حول شخصيته. اتجاهاته المعلنة حول معاني الحُرية، والديمقراطية، وحق الشعب في التعبير عن أشواقه؛ تبدو هي الأبرز دائماً. فتح هاتفه المحمول، كتب الاسم على محرك قوقل السريع.. ظهرت له صفحات عديدة، معظمها تحمل نفس اللقطات التي رآها بمكتبه عندما زاره. تنَقَّل بينها وظل يقرأ عن سيرته وإنجازاته في المجال الصحفي..

أبرز ما عَلِق بذهنه عن شخصية مالك الصحفي الكبير؛ ذكاؤه وطموحه. دراسته للإعلام بجامعة القاهرة، وتلقيه لفترته التدريبية الأولى بأكبر المؤسسات الصحفية المصرية. يوصف من قبل زملائه بأنه مولعٌ بالسبق الصحفي، ومهووس بالخبطات الإعلامية الخطيرة.. وأتم هو من عنده بقية الوصف، *يدهس كل من يقف أمام طموحه، ومستعد للتحالف مع الشيطان للوصول إلى أهدافه*.

اشترى نسخة اليوم من صحيفة (صوت الجماهير). وأخذ يتصفحها بتمعُّن. وجدها عادية إلا من ملف الفضائح والفساد المنشور بإحدى صفحاتها الداخلية. أطلق عليه محرره اسم (تحت المجهر)، تَنَقَّل بين عناوين وسطور الجريدة. مُحرر الملف وصف الفاسدين بأقذع النعوت وأفظع الألفاظ والصفات، معدِّدا

بعض الحالات البارزة من قضايا الفساد، والتي أصبحت منتشرة وعلى نطاقٍ واسع. لم يلحظ جديداً، أو شيئاً مثيراً في كل ما قرأه عن الفساد والضجة التي أثارتها الصحيفة. لم يلفت انتباهه شيء عدا عمود صغير بركن الصفحة نادى كاتبه بضرورة محاربة الفاسدين، ووعد بمساعدة كل من يريد المساهمة في حصارهم، داعياً كل من يملك معلومات عن الفساد لإرسالها عبر بريده الإلكتروني. لم يشك عاصم في أن محرر الصفحة هو مالك رفعت نفسه، وحتى لو لم يكن هو محررها فأغلب الظن أنها قد حُررتْ بتكليفٍ مباشرٍ منه. وقبل أن يرمي بالصحيفة جانباً؛ أخرج مفكرته وسجل بها عنوان البريد الالكتروني للصفحة، واسم صاحب العمود،وعنوانه ورقم هاتفه، وأرجع المفكرة ووضعها داخل الحقيبة التي يحملها على ظهره.

***

كانت العربة تسير بسرعة معقولة نحو مطعم السمك على ضفة النيل، لكن إحساس يونس وقلقه الدائم جعله يفتح جهاز الراديو ويوقفه على تردد إذاعته المفضلة. فعل يونس ذلك بسرعة لا إرادية ولم يُتح لعاصم فرصة الموافقة أو الرفض. كانت الإيقاعات صاخبة، والغناء الأجنبي يضج بصوت مغنية قصدت أن تصرخ أكثر مما هي تنحو إلى التطريب.

إذن فالجو أصبح على مزاجه تماماً، ومتاحاً لمناقشة الموضوع الذي جعل عاصم يغامر، ويترك المؤسسة أثناء الدوام، ودون أخذ الإذن، رغم الترصد المستمر.

وصلا في وقتٍ مناسب. طلبا ما يناسبهما من أسماك البلطي والهامور، ثم جلسا في غرفة لوحدهما. قرر عاصم أن يبدأ هجومه من نقطة النهاية التي توصل إليها.

لماذا تنصبون على المدير العام؟...

لاحظ الارتباك الذي أحدثه سؤاله المفاجئ بوجه يونس. رغم محاولاته المستميتة في إخفاء تعابير انزعاجه بسبب السؤال. ومحاولته أن يبدو عادياً، فطن عاصم إلى زعزته.. أخيراً، رد عليه:

*أتقصدني بالسؤال؟... *

*نعم *.. قالها عاصم بوضوح وجرأة. وهو ينظر في عيني يونس.

كان يراهن على ذلك الأسلوب الذي يتّبعه كل من وصل إلى مرحلة الثقة، أسلوب مَن يريد أن يحاصر فريسته، فلا يترك أمامها فرصةً للهروب.. ومع يقينه بإمكانية فشل الطريقة التى اتبعها للحصول على معلومة. كان لابد من اجتياز حاجز الصمت والسرِّية وكشف المستور بين يونس وحسن فكة..

فكر عاصم سريعاً وأخذ يتجه نحو إرباكه أكثر:

* لقد سمعت ما دار بينكما.. وكنت أتابعكم منذ فترة..*..

وحتى يزرع الاطمئنان والهدوء في قلبه أكثر؛ ركز على سؤاله..

*لماذا تظنني ضدك؟؟.. *

أجابه سريعاً..

أعرف أنك لست ضدي.. بل صديقي

إذن لماذا تصمت؟...

ينظر إليه طويلاً، تدخل عاملة المطعم حاملةً لهما ما طلباه من أكل. ينزله يونس على المنضدة، ويطلب منها إغلاق الباب بعد خروجها. يأخذ نفساً عميقاً. يمسح وجهه براحة يديه. ينظر الى تفاصيل الحُجرة التي يجلسان بها. يكرر عاصم سؤاله عليه مرة أخرى، يحثه على الحديث لكنه لا يرد عليه، وفي النهاية ينفي ويصر على عدم وجود شيء غريب بينهما.

- ١١ -

عجيبٌ أمر هذه الدنيا. بعض التفاصيل التي نبحث عنها، ونجتهد في الحصول عليها، قد لا ننجح في الوصول إليها مهما بلغ بنا الاجتهاد. بينما الأشياء الأخرى التي ننساها، ونتركها، ونقرر ألا رجعة لنا في أمر البحث عنها؛ تخذلنا وتأتي بلا مواعيد وهي طائعة مختارة. هكذا كان عاصم يُحادث نفسه وهو يستمع إلى يونس وحكايته..

بعد أن رفض يونس الإفصاح عن سرِّ العلاقة التي بينه وحسن فكة؛ لم يستطع عاصم أن يضغط عليه. لأنه كان يبحث عن حقيقةٍ لا تعنيه كثيراً، شغف المعرفة بتفاصيل الأشياء وروح المحقق جعلته يجتهد ويضغط، دون أن يربط كل ذلك بفوائد أو مصالح مباشرة. كان حتى تلك اللحظة يسأل ليعرف لا أكثر.. ووجد نفسه في النهاية، مضطراً للاعتراف أمامه بالعلاقة العاطفية التي تجمعه بأريج، والتأكيد بأن ما يعنيه في الأمر كله هو إحساسه بأن الحديث الذي سمعه على لسان فكّة كان يخص والدتها، لذا فقد كان مضطراً للحديث معه والتعبير عن رفضه للسلوك الذي انتهجوه وقتما كانت مريضة. لكن يونس أنكر صلته بالموضوع، وتحداه أن يثبت شيئاً من تخيلاته.

انتهى الأمر ساعتها عند هذا الحد. لكن الأيام لم تلبث وأن عادت تسير في دورتها المحتومة وكأنها ترجع للوراء. وأتى اليوم الذي ناداه فيه يونس وطلب ملاقاته لأمر زعم بأنه يهمه بصورةٍ شخصية. أبدى عاصم عدم مبالاته وحاول أن يبدو غير مكترثٍ بالموضوع في البداية، لكن كلمات يونس التي تحمل من الإشارات والرجاء جعلته يغيِّر رأيه ويذهب معه.

ركبا نفس العربة، وجلسا بنفس المكان الذي التقيا به قبل شهرين تقريباً. كان يونس مستعجلاً لقول شيء لم يكن متوقعاً بالنسبة لعاصم.

حديثه هذه المرة كان غريباً. بعد أن تنحنح يونس، قال:

عندما جئت بي إلى هذا المكان في المرةِ السابقة، كنت تبحث عن إجابة لتساؤلٍ لا اعتبره كان مُهماً بالنسبة لك، لكنني سأعترف لك الآن وبكامل اختياري عن شيءٍ يهمك، وقد تجد فيه بعض الإجابات الشافية عن تساؤلاتك السابقة.. يجب أن تعلم بأن ما سأقوله الآن، أو سأقدمه لك من معلومات؛ سأقوله بدافع العُشرة، والصداقة التي بيننا لا أكثر.. لست خائفاً من أحد، ولا تأخذني شفقة بك. أنت قوي وقادر على حماية نفسك..

قال ذلك وأخرج ملفاً يضم بعض الأوراق والمستندات، فتحها أمام عاصم.. وبدأ يأخذ منها واحدة تلو الأخرى ويعرضها أمامه.. فتح الورقة الأولى وكانت عبارة عن خطاب باسم عاصم موجَّه منه إلى مجلس إدارة المؤسسة، يطلب فيه من انتحل الاسم فرصة للدراسة خارج البلاد وعلى نفقة المؤسسة التي

ستتحمل مبلغاَ كبيراَ في حالة موافقتها على المنحة. وعلى المستند تعليقات من صادق عبد الرحمن، وكمال غريب، وإشادة مع طلب آخر مُقدم من المدير العام لمجلس الإدارة بالتصديق. وعدد من الفواتير الواردة من جامعة أوربية تطالب بسداد المبلغ. خطاب آخر به تصديق بسلفية وبمبلغ كبير، وثالث به استرحام وطلب بإهلاك قرض بمبلغ كبير لم يكن قد أخذه من المؤسسة. الاسترحام المكتوب كان بلهجةٍ استعطافية، وبه تفصيل لظروف أسرية قاهرة قال كاتبها بأنها منعته من السداد. فتح بقية الخطابات والمستندات الأخرى فكانت كلها مكتوبة باسم عاصم ومُقَدَّمة للإدارة بطرق ووسائل مختلفة، وبها موافقات وتصديقات بمبالغ كبيرة.

كانت الأوراق عبارة عن مجموعة من المعاملات المالية التي تجري باسم عاصم، ودون علمه. لذا فالمفاجأة كانت أكبر من تصوره. أحس بعدها بأنه قد فقد عقله وبصره لثوان. ما وجده داخل الخطابات كان يحمل تقريباً نفس العبارات والمضامين التي تصله من وداد. وداد أحبته لذا كانت دائمة الحديث عن تصديقات تمُر بالصدفة عبر مكتبها. وذكرت له موضوع الدراسات العليا وبعض القروض، لكنه لم يهتم بالأمر ساعتها لأنه لم يُقدم طلباً بذلك، ويعلم أن مؤسسته ليست بذلك السخاء الذي يجعلها تحس بما يحتاجه كل موظف فتمنحه ما يتمنى دون أن يطلب.

إذن فقد كانت أحاديث وداد حقيقة وليست أوهاماً. إنه الجنون بعينه.. أسئلة كثيرة تسارعت إلى ذهنه.. ما الذي يحدث خلف كواليس المؤسسة!!؟؟..ومن الذي يلعب هذه اللعبة الخطرة؟؟ ومع من يتحالف؟؟ وكم من المبالغ صُدقت باسمه من قبل، أو بعد الذي رآه أمامه..؟ وكم من المبالغ صُدقت باسم غيره من الموظفين الآخرين؟ بل ما هي قيمة المبالغ الإجمالية التي خرجت من هذه اللعبة القذرة؟.. ولماذا لم يتم الكشف والقبض على من يقوم بكل ذلك؟.. أسئلة كثيرة حائرة ومجنونة تحتاج لإجابات مجنونة مثلها كانت تجول بخاطره ولا تجد إجابة.. بعد أن تناوشته كل هذه الأسئلة، عاد من حالة التساؤلات المتشابكة، ورجع إلى يونس من جديد:

من أين أتيت بهذه المستندات، وكيف توصلت إليها؟

كان هذا السؤال أول الأسئلة الذي قفزت إلى لسانه..

ليس مهماً أن تعرف كيف وصلتني، لكن عليك أن تشكر حظك لأنها وقعت في يدي عن طريق الصدفة، ومن واجبي بحكم صداقتنا تبليغك بالأمر..

يجد نفسه مندفعاً نحو يونس. يرتفع صوته لا شعورياً:

تركتك المرة الفائتة لأن الأمر لم يكن يعنيني لكن الوضع الان تغيَّر واختلف..

يمسك يونس به ويجلسه، يطلب منه الهدوء. ويقول:

من المؤكد أنني سأحكي لك عن كل شيء، لأننا سنقاتل عدواَ واحداَ...

بعد هذه الجُملة هدأت روحه.. ومنحه فرصة الحديث..

كانت المعلومات مذهلة. حكى له يونس عن قدراته العالية في التعامل مع تطبيقات الحواسيب وبرامجها وتمكنه من اختراق هاتف المدير العام المحمول وبريده الإلكتروني وهواتف بعض المسؤولين بالمؤسسة. سأله عن كيفية ذلك فبيَّن له اسم التطبيق الذي يمنحه إمكانية اختراق البريد الإلكتروني والتحكم في الهواتف من على البُعد، مما أتاح له التحكم في هواتف من يراقبهم وتحميل كل البيانات التي تفيده..

لم يكتف يونس بحكاياته ومعلوماته العجيبة التي سردها أمام صديقه عاصم، وحدثه عن غسيل السيارات، عمله الذي اتجه إليه بسبب قلة العائد الذي يجنيه من صيانة الهواتف، وكيفية استخدامه كوسيلة للولوج إلى المؤسسة حتى أصبح المسؤول عن غسيل سيارات موظفيها، وكل مسئوليها، بمن فيهم محمود عبد الكريم..

دُهش عاصم بما سمعه، لكن يونس لم يمنحه فرصة السؤال لتأكيد ما يقول من معلومات، أو الاستمتاع بدهشته المؤقتة تلك، وعاجله بمعلومات أكثر خطورة:

كنت أراقب البريد والرسائل.. وتكشَّفتْ لي حقائق غريبة، وكثير من خفايا المعلومات. حتى ظهرت لي هذه المستندات التي تخصك. فقررت أن أضعك في الصورة

عاد إلى عاصم شغفه الأول من جديد.. وسأله..

لكن لماذا كنت تراقب بريد المدير العام وهاتفه المحمول؟.

تنهد يونس وتابع:

بغرض الاستفادة من معلوماته الخافية وإيهامه بسطوة حسن فكَّة كشيخ باتع. إنها حكايةٌ طويلة.. ليس هذا وقتها.. أشعرته تنهداته ببعض الآلام المستترة.. وجد نفسه يغيِّر المكان الذي يجلس به، ويطلب منه سرد حكايته كلها، وبالتفصيل.

***

شَكَّلتْ نجاحات عاصم، وبروزه الأخير ضغوطاً كبيرة على بعض العاملين بالمؤسسة، بل أصبحت بالنسبة لهم مشكلةً كبرى، خاصة أولئك الذين هم في مواجهة خفية ومستمرة معه. بدأت الهمسات والهمهمات تتحدث من هنا وهناك، وظلت المقارنات تُجرى بينه والآخرين. البعض رشحوه لاحتلال موقع عادل مرحوم، وعللوا لهذا السيناريو مستدلين بالضجر والغيرة التي أبداها في الاجتماع الأخير. بعضهم وصل إلى القول بأن ابراهيم وهبِي في الأصل رجل

ضعيف المهارات والقدرات، ولا يستحق أن يكون على رأس الإدارة التي تضم موظفاً بمواصفات عاصم.

الأمر نفسه كان يدور في رأس الإدارة العليا، التي تبيَّن لها صحة ما يدور في أذهان الناس. خاصة بعد المصيبة الأخيرة التي حلَّتْ بالإدارة، وتسببت في مشكلة لإبراهيم وهبي بل كادت أن تعصف به وباستقرار المؤسسة كلها.

صحا الجميع يومها على نوبات وصيحات إحدى المتدربات بالمؤسسة. جاءت تبكي مع بداية الدوام، زاعمة بأن موظفاً تحرش بها، عندما كانت تقوم ببعض المهام الإدارية المكلّفة بها من قبل إبراهيم وهبي، بعد انتهاء الدوام في اليوم السابق.

وبدأت عملية التحقيق...

أتوا بالموظف المتهم، وطلبوا من المتدربة أن تحكي ما حدث.. قالت:

*كنا بالمكتب بعد السادسة مساء. كنت مكلَّفة من قبل مدير الإدارة بتنفيذ عمل متراكم منذ فترة، وكان هناك بعض الموظفين أثناء قيامنا بعملنا لكنهم ذهبوا فجأة وتركونا معاً، ولم انتبه لذلك إلا عندما حاول التحرُّش بي.. ولولا وجود الحراس لما نجحت في الخروج من مصيبتي... *..

كانت تحكي قصتها، وتكمل بقية الحكاية بدموعها وبكائها.. فاكتفوا بما ذكرت.. وسمحوا لها بالمغادرة.

لم ينتظر الموظف المتهم بعد حديثها كثيراً واعترف بجرمه.. وتم عقابهما معاً. فُصل الأول، وحُرم من مزاولة العمل بعد أن مُنح استحقاقاته. أما البنت فقد مُنعت من مواصلة عملها التدريبي، وتم إبلاغها بعدم رغبة المؤسسة في استمرارها.

انتهت قصة التَحرُّش، لكن انتشار الخبر داخل المؤسسة وخارجها عكَّر الأجواء، ولم تراوح المشكلات الإدارية مكانها، وضربت الفوضى بأطنابها، لأن حالة العراك الخفي التي كانت بين عاصم ومديره المباشر، حول كثير من القضايا الإدارية كانت واضحة لكل لمَّاح. وتعمَّقت أكثر بسبب عدد من المواقف. كانت الآراء متفاوتة حتى جاء تقرير لجنة التحقيق الذي قُدِّم للإدارة العليا واعتُبِر منصفاً، حتى أن المدير العام وضع خَطَّاً باللون الأحمر تحت بعض العبارات المهمة التي أوضحت الحقائق وَرفعتْ من أسهم عاصم:

(بعد التحقيق مع الأطراف التي شكلت الحالة، وموظفي الإدارة التي حدثت بها حادثة التحرش؛ تبين للجنة أن الأستاذ عاصم قام بتنبيه مدير الإدارة لخطورة تكليف بعض المتدربات بأعباء إضافية وبقائهن إلى أوقات متأخرة، دون علم الإدارة. وتعللهن بحجة انجاز العمل المتراكم. اتضح للجنة بأن تكليفات إبراهيم وهبي مدير الإدارة، وتجاهله لنصيحة الأستاذ عاصم، وعدم

تداركه المبكَر للأمر، هو الذي تسبب في حدوث المشكلة).

هذه الفقرة، وبعض العبارات الأخرى، جعلت المدير يكتب توجيهاته الفورية ثم يرسل التقرير للشئون الإدارية لتنفيذ التوجيهات والقرارات.

***

*تخرجتُ من المعهد الفنِّي وتخصصت في صيانة الهواتف الشخصية وأجهزة الحاسب الآلي. لم تُتح لي فرصة تلقي دراسات متقدمة، لذلك فقد كانت كل الطرق نحو الوظيفة مقفولة في وجهي. والدي توفى ولم أتجاوز الثانية عشرة من عمري. أمي مريضة بداء الربو، ولا تستطيع إعالتنا أنا وأختيَّ الإثنتين سماح ومها. اضطررت للخروج للعمل في وقتٍ مبكر من حياتي لسد هذا النقص. نجحت في الحفاظ على ما تبقى من كبرياء العائلة حتى أكملت شقيقتي الكبرى دراستها الجامعية، وتزوجت الأخرى من رجل محدود الدخل، لكنه كان قادراً على تحمل المسؤولية. أحببت ميسون؛ الشابة التي أشعرتني بإنسانيتي التي لم أكن منتبهاً لها طوال حياتي، فتركيزي كان منصباً على تقديم كل ما أملك لعائلتي. كانت زميلةً لشقيقتي. درستْ معها بالجامعة وأتاحت هذه المزاملة، لي، ولها؛ فرصة اللقيا والتعارف. تزوجتها في النهاية. بعد أن تخرجت شقيقتي وبدأت في مهمة البحث عن وظيفة تناسب قدراتها ومؤهلاتها وما درسته بالجامعة، فتحت مؤسستكم فرصة للعمل وأعلنتها بالصحف، سمعنا بالخبر، وبعد أن نجحت وعبرت امتحانات المتقدمين عرفنا أنها كانت من المتميزين، ولعلك تذكر اسمها جيداً *سماح موسى جوهر*..
صمت يونس قليلاً حتى أشار له عاصم بالإيجاب.. تذكَّرها وصُعِق بالمعلومة لأنه لم يكن يدري بأن سماح الجميلة شقيقة يونس. لماذا لم يُشر إليه بذلك منذ أن تعارفا قبل فترة؟. كانت أنثى ذات وجه دائري مليح. وسحنة قمحية مُريحة للناظر. جميلة التقاطيع. لها قوام ممشوق ، قادر على ترويض أسد، ولفت انتباه أعتى الرجال. كانت أنثى استثنائية، بها حنية ممزوجة بدلال غريب. تَذَّكر ذلك؛ لأنهما تبادلا كثيراً من الأحاديث أثناء المعاينات، وظل مفتوناً بحسنها لفترة طويلة قبل أن يجتهد في نسيانها، ويفشل في النهاية. تناقشا كثيراً حول قضايا الشباب والبلاد ورؤيتهما في ضرورة التغيير.. وأفسح كل منهما مكانةً غير عاديّة للآخر. تبادلا أرقام الهواتف. وكان يأمل في مواصلة علاقتهما طويلاً، لكنه أخطأ بتسجيله رقمها على ورقةٍ صغيرةٍ. طواها لحظة اللقاء، ثم قام بوضعها داخل جيب قميصه، وتفاجأ في اليوم التالي بأنها قد تلفت عند غسل القميص. كم تحسّر لحظتها وقتله الندم.. بَحَث عنها ولم تظهر مرةً أخرى، وها هي تنداح كما النسمة، وتعود كالفينيق في الحكاية..
انتبه لانتظار يونس لرده على السؤال.. فعاد يقول:

أتذكرها تماماً، كانت نتيجتها تتفوق علينا جميعاً لكنها لم تُقبل في النهاية

واصل يونس حكايته..

صحيح فقد تفاجأنا في المعاينة الأخيرة بأنها لم تُقبل بالوظيفة. بينما تم قبول عدد من المتقدمين الآخرين وكنت أنت من ضمنهم....

* لكنك لم تجاوبني عن العلاقة التي بينك وحسن فكة حتى الآن..!!*

رد يونس على تساؤله بإشارة من يده تعني الصبر، وتابع حكايته المثيرة.

بعد عدم قبول شقيقتي قدَّرنا كلنا الأمر، واعتبرناه قضاءً وقدراً، وسوء حظ لا أكثر، لكن ما حدث كان غير ذلك....

في تلك اللحظة تحوَّل وجهه نحو جهة بعيدة، وتطايرت من عينيه نظرات حادة.. شعر عاصم بأن التفاصيل القادمة ستكون هي الإثارة بعينها، بعد ما رآه من تغيير في لون عينيه، وحبات العرق التي تساقطت من جبهته، رغم الأجواء الباردة، وجهاز التكييف الذي كان في محاذاة وجهه.

تعصَّب وجه يونس وبدا أنه سينفجر، وقال موجهاً حديثه نحو عاصم:

هل تعلم أن شقيقتي لم يتم تعيينها لأنها رفضت أن تساوم على شرفها !!..

أحس عاصم بالهجوم مرتداً عليه، بل أصابه في مقتل.. لم يكن يتوقع أبداً أن تكون هذه هي نهاية الحكاية.

من أين أتيت بهذا الحديث، ومن الذي حاول فعل ذلك؟؟..

وجد نفسه يضيِّق الخناق لا شعورياً على يونس، خمَّن بأن سماح لن تحكي لاخيها ما تعرضت له من مضايقات. ولن تفصح عن واقعة التحرُّش حتى وإن حدثت في الحقيقة. كان شغوفاً بمعرفة الطريقة التي وصلته بها المعلومة التي يبرر بها يونس الحكاية..

*زوجتي كانت صديقة لشقيقتي قبل أن تكون زوجتي كما شرحت لك.. وهي من حَكَت لي أمر تعرضها لمضايقات من قبل مدير كبير بالمؤسسة؛ وأحد المسئولين عن التوظيف. لن أذكره لك. ساومها على شرفها بالوظيفة فرفضت واعتزلت كل شيء، شرحته لي بعد أن عانت من كثرة عتابي على سماح التي أُحبِطت بعد المعاينات، ولم تعد تلقي بالاً للبحث عن الوظائف *..

*ثم ماذا أيضاً حدثني بالتفاصيل..؟؟ *

عاصم يتساءل..ليواصل في سرده للوقائع..

*بعد فشلها في الدخول إلى مؤسستكم، كنت مُصِرَّاً على مواصلة مسيرتها، ظللت أجلب لها إعلانات الوظائف الجديدة، لكنها كانت ترمي بالجريدة أمامي وتذهب غير مبالية بما أحمله من تعاطف لقضيتها، وفي يومٍ صائف وحار؛ رجعت وفي يدي إعلان يتبع لأكبر المؤسسات المصرفية فيً البلاد. قدمته إليها فرمتْ به أمامي وفعلت مثلما كانت تفعل في كل مرة.. ولم أستطع

تحمل ما تفعله.. صِحت بها.. انفجرت.. ضربتها.. كدت أن أقتلها.. مسكوني .. تركتهم وخرجت من المنزل.*

***

*عندما عُدت متأخراً، صارحتني زوجتي بالسبب، فجن جنوني، وأقسمت في نفسي على الانتقام *.. قالها يونس، ولم يكد عاصم يبادر ليسأل مرة أخرى عن الشخصية التي تحرشت بسماح، وحوَّلت حياتها إلى جحيم وآلام، حتى رن هاتفه المحمول، وقرأ اسم إبراهيم وهبي على الشاشة. فكَّر في عدم الرد حتى لا يقطع استرسال يونس وانغماسه في الحكاية. لكن إشارة يونس، ومنحه إذن الرد طمأنه وجعله يرد على الاتصال ليستمع إلى حديث إبراهيم وهبي وصوته الذي يصفه جبرالله بالثعلبي:

*كشف التنقلات الجديد صدر اليوم.. وتم نقلك إلى واحدة من بؤر الصراع المشتعل.. مرّت لحظة من الصمت وهَم عاصم بالرد على عباراته التي سكبها عبر أسلاك وأثير الهاتف لكنه تابع الحديث، وجاءت نبرته مختلفة هذه المرَّة: *صدقني؛ فاجأني القرار.. لكن سأطمئنك بعض الشيء..هناك محاولات لمراجعة القرار مع الإدارة، وربما ننجح في إبقائك معنا*..

الخبر كان مفاجئاً له، وصادماً لجميع العاملين بالمؤسسة، ورغم تأثر عاصم وانفعاله بالقرار المفاجيء؛ إلا إنه لم يكن بتلك الدرجة التي تحجب عن ذهنه الانتباه لغرابة ما سمعه من إبراهيم وهبي، فقد بدا له من طريقة حديثه كمن يبحث عن تبرير لشيء لا علاقة له به، وهذا ما جعل بذرة الشك فيه تنمو بقوة وسرعة.

***

تحدث يا يونس.. من الذي حاول التحرّش بشقيقتك؟ قُلت أنك ستنتقم؟.. فكيف انتقمت منهم، أو كيف ستنتقم في المستقبل؟..

سأل عاصم بعد تأمله العميق الذي أعقب مكالمته وحديثه مع إبراهيم وهبي.

رد يونس، وهو يرفع أكمام قميصه المهتريء:

*أيقنت بأن دخولي في حياة محمود وصادق يجب أن يكون بواحدة من الأساليب التي يؤمنان بها، فهما سبب تعاسة شقيقتي لذلك فقد خططت للقضاء عليهما مع حسن فكّـة..

كيف، وما هي علاقة فكَّـة بالموضوع؟، عاصم بلهفة وتساؤل..

*ذهب حسن فكة لشخص يعرفه، كان من أولئك المشتغلين بأعمال السحر، وطلب منه العمل على الشخصيات التي أردناها، فكان يصنع الأزمة ويعطي الحل. يصنع السحر ويفكه لحسن فيظهر كالمنقذ بالنسبة لمحمود وصادق. كما تجسسنا عليهما، وعرفنا أشياء لم تكن معروفة لبقية الناس. كان حسن

فكة يستخدمها في الإيهام والتنبؤ واضفاء روح الرجل الصالح والمبروك..
وهكذا رسَّخنا في ذهنهما شخصية حسن فكة التي يعرفها الآن كل الموظفين بالمؤسسة*..

* وما الذي استفدته أنت؟.. أ هو الانتقام بالاستمتاع بآلامهما مثلاً ؟..*..

* لا طبعاً.. *..

* أريد أن أعرف، ما الذي استفدتماه؟ *.. يكرر سؤاله..

يجيبه يونس بذكاء..

استفدنا أشياء كثيرة، كنا نطالب بمبالغ كبيرة، وأمثال هؤلاء يدفعون بسخاء....

تذكَّر عاصم العملية التي كانت الخيط لكل هذه التفاصيل، وسأله:

* كم منحكم في علاج زوجته ؟*..

كان يونس في هذه اللحظة قد وصل إلى مرحلة مسترسلة من البوح، بدا وكأنه يفرغ ما بقلبه ليرتاح، لذا قال بسرعة:

* أهدانا عربة ابنته الحمراء التي طلبناها شرطاً للعلاج..*...

عربة أريج الحمراء.. أريج!! أين هي الآن يا تُرى؟ تَذكَّرها عاصم في خضم هذه الأمواج المتلاطمة من المعلومات.. فقرر أن يتصل بها.

- ١٢ -

عندما ذكر له يونس أن محمود عبد الكريم منحهم مقابل علاجهم لزوجته سيارة أريج الحمراء؛ بادر عاصم سريعاً للتأكد والحصول على معلومات إضافية أخرى، جالت بخاطره تلك العبارة التي قالتها له أريج في الأيام الأولى لتعارفهما. تذكَّر أنها اعترفت له بملكيتها لعدد من الفلل والسيارات التي أهداها لها والدها، وذكرت له أنه فعل ذلك مع كل أولاده.

أخرج هاتفه وضغط على الأرقام حتى ظهر له اسمها وأجرى المكالمة. كان هاتفها مشغولاً، لكنه أصّر على معاودة الاتصال. في العادة يُلزمها بأن تعتذر لمن تتحدث معه إن ظهر اسمه بشاشة جوالها متصلاً.. ساديٌ هو في علاقاته العاطفية، وهي متواطئة مع قلبها ومُقتنعة بجبروته عليها. تحبه رغم ذلك.. تُوتِّرها غضبته بعد عدم رَدّها السريع على مكالماته. ترفع شاشة جوالها إلى عينيها فتجده متصلاً. تختصر مُحادثتها وتنهيها سريعاً. تدخل رنته المختلفة، بينما تلتقط أذنه من الطرف الآخر نغمتها الموسيقية المخصصة له دونا عن عموم المتصلين. وقبل أن تتركه يستمتع بأجواء المقطوعة الرومانسية؛ يصله صوتها المتفائل:

* أهلا بالحبائب *.

شاهدت سيارة حمراء تشبه سياراتك، وقررت أن أتأكد، هل جئت بشارع المؤسسة قبل قليل؟..

* أدري بخصوصية محبتك لي، لكن لم أكن أظنها تصل إلى هذه الدرجة..*

تقول ذلك ثم تضيف مازحة..

* عَبَرْت ببالك.. سعيدةٌ أنا بذلك يا حبيبي*

يثني على عباراتها الجميلة

كل يوم.. وكل لحظة أنتِ ببالي..

يحاول أن يعكس لها جديته في السؤال.. يعيده مرة أخرى..

هل كنت بشارعنا قبل قليل؟

لا أبداً والله.. لكنك ابن حلال..

*طبعاً. ابن حلال.. وهل عندك شك؟ *..

بالتأكيد لا.. كنت أرغب في دعوتك لمشاركتنا مناسبة تخص واحدة من صديقاتي يوم الغد....

صمتت لأنها كانت تنتظر ردّاً منه، وصمت لأنه لم يجد الإجابة التي يتوقعها،

واشتعل ذهنه لإعادة المحاولة بطريقة أخرى:

قبل الدعوة.. لم تردي على سؤالي عن مرور العربة الحمراء بشارعنا؟..

تنزعج وتقرر حسم الأمر..

لم أعد أملك عربةً حمراء.. لقد باعها والدي لشخص من معارفه..

مازحها بحُب مفتعل:

إذن فقد كان سراباً.. ولم تأت الحلوة بشارعنا....

كان يعلم بأنها تملك سيارة أخرى من موديل آخر عصري وأجود من سيارتها الحمراء، ويمكنها أن تأتي بها غداً، لكنه أراد التأكد من عدم وجود العربة الحمراء التي قال له يونس بأنهما قد حصلا عليها مقابل العلاج الوهمي الذي قاما به.

نلتقي عند الخامسة مساء الغد على ضفة النيل

ختمت عباراتها بهذه الجملة التي لم يجد حيالها ردَّاً سوى الإيجاب والموافقة وأنهى الاتصال.

***

فاجأ قرار نقل عاصم العاملين بالمؤسسة، أصابهم بالحيرة لمعرفتهم بالتقدير والمحبة التي يكنها المدير العام له، لكنهم جميعاً كانوا بعيدين عن حقيقة الأحداث العاصفة التي جعلت إدارة المؤسسة تصدر مثل هذا القرار في النهاية.

وبالرغم من محاولات إبراهيم وهبي المستميتة لإضفاء براءته وعدم معرفته بالقرار، ومسارعته بالتصريح العاطفي، وتعبيره عن حالة الأسى التي يعيشها نتيجة المفاجأة، إلا أن عاصم أدرك بحدسه أن إبراهيم وهبي؛ كان على علم بكل شي، ولم يستبعد أن يكون قد شارك في التخطيط لفكرة نقله.

كانت غيرة عادل مرحوم قد بلغت أوجها، بينما وصل الصراع الصامت بينه وإبراهيم وهبي مرحلة أشبه بالانفجار. بعد ظهور عدد من المشاكل الإدارية التي كان سببها عدم انتباه وهبي لملاحظات عاصم التي أشار له بها. وفي هذه الأجواء المشحونة بالتوتر؛ قام عادل مرحوم بطبخ الفكرة على نارٍ هادئة. وعلم جبر الله بكل شيء فحكى لعاصم الحكاية..

نريد نقله من إدارتك..

قالوا لإبراهيم وهبي ذلك. فتساءل سريعاً وردّ:..

.. مَنْ..

وعندما علم بأن الأمر يعنيك؛ وجد أن الفرصة قد جاءته على طبقٍ من ذهب، وأدرك أن إجابته قد تكون سبباً في ارتياحه من همٍ كبير أرَّق مضجعه. قال لهم بخُبثه وجُبنه وصوته الثعلبي الذي تعرفه:

عاصم شخص ممتاز، وخروجه من إدارتنا خسارة كبيرة، لكننا لن نتأثر بغيابه. إن كنتم تريدونه في موقعٍ آخر؛ فإننا نثق في أنه سيقوم باللازم أينما حل.

كان حديثه بمثابة تصريح وموافقة بالنقل، لذا عندما أصدروا القرار الذي انتظره طويلاً، لم يستطع الصبر، وكان أول المتصلين به للتعبير عن الدهشة والاستغراب.

عادل مرحوم كان صاحب المقترح الجهنمي:

ننشيء فرعاً للمؤسسة بالمنطقة التي تشهد تغيرات كبيرة هذه الأيام.. ونسند إدارته لشخص قادر على مواجهة التحديات، شخص يمكنه النجاح

وعندما بدأوا في البحث عن الشخص المناسب، كانت رؤيته مكتملة وحاضرة..

عاصم.. أرى أنه أكثر شخص مؤهل لذلك....

لا أستطيع الجزم بأنهم قد خُدعوا بأفكار عادل مرحوم، لكنني مدرك بأن لعبة الحياة والمصالح تجعلهم يلتزمون الصمت حيال المخطط الذي جاء به عادل مرحوم. خاصة عندما تبدو الخطورة أبعد ما تكون عن مصالحهم المباشرة.

فكَّر المدير العام في مقترح الفرع الجديد، وقلَّب الأمر بكل جوانبه.. نظر إلى معاونيه كمال غريب.. صادق عبد الرحمن والبقية.. كانوا يعلمون بأنك لن تستطيع ترك والديك وحدهما، حتى ولو اضطررت لتقديم استقالتك وترك العمل. لكن عادل مرحوم؛ الذي كان قد أصبح بُعبعاً مخيفاً داخل المؤسسة، ودانت له السيطرة على مقاليد العمل. فأصبح ناهضاً بمعظم القرارات الكبيرة، ومع تناقل الشائعات التي تقول بأن نجاح مخططه للجلوس بمقعد المدير العام قد أصبح وشيكاً. كل هذه الأسباب جعلته يقترح القرار ويدفع به بثقة، ليجبرك على الاختيار بين أمرين إما مقصلة التنفيذ والغياب هناك لعدة سنوات، أو رضوخك لسندان الاستقالة.

هم فهموا اللعبة، كان عليهم أن يختاروا بين الوقوف ضد عادل مرحوم، أو إرسالك إلى المحرقة، وأعتقد أنك لو كنت مكانهم؛ ستختار ما اختاروه. كلنا خداعون يا عزيزي، ونجري وراء المصالح الشخصية.

هكذا اختصر جبر الله كل الحكاية، وفَلْسَفها له..

***

تذكَّر عاصم أن أريج قد دَعتْه بالأمس لمشاركتها وزميلاتها الاحتفال بفيلتها

على النيل. وقرر أن يلبي دعوتها ويسألها عن الفلل والأملاك والمزارع والسيارات التي تملكها هي واخوانها وأسرتها. لكن بطريقة غير مباشرة.

سنحت له الفرصة لذلك، أثناء تجوالهما حول حديقة القصر الذي كان بوجهة نظره منتجعاً وليس قصراً عادياً. بادرها بسؤال بدا وكأنه نوعاً من المزاح:

* إن تزوجتك هل سنسكن هنا؟*...

لمح ابتسامتها الخجولة واستنتج في مخيلته أنها قد قررت أن تبادله نفس أسلوبه المراوغ دون أن تتفطن لمقصده:

* دعنا نتزوج أولاً.. وسأسكن حيثما تريدني أن أسكن..*

شعر بأنها راوغته دون أن تنتبه إلى الهدف من السؤال، قرر استدراجها من جديد وإعادتها لنقطة الحوار الجوهرية..

إذن فقد ظننت بأنني أرفض الإقامة بمنزل والد زوجتي!!..

ينظر إليها بعينيه ويغمز لها، يمنحها إحساساً بالإعجاب والافتتان.. فتقول:

في هذه الحالة سأخيِّرك بين هذه أو تلك.. أو.. تتذكر شيئاً آخرا.. وتضيف:

*دعنا من هذا الحديث *.. وقبل أن تكمل جُملتها؛ يلتقط إجابتها الأولى المهمة التي كشفت بها عن ما تملكه هي وحدها من الفلل. يحاول أن يرجع إلى أحلامه القديمة. وقتما كان يتمنى أن يصبح ثرياً، متحصناً بالكثير من العقارات والشركات والقصور.

يرجع به تفكيره إلى حسم الأمر الذي جاء من أجله، يخشى من شكوكه، يسعى للتأكد، فيسألها:

خياري يتحدد بعد معرفة ما تمتلكين من قصور وفلل؟

تستغرب من حديثه، تشعر بجديته هذه المرة.. لكنها تتجاوز ظنها السيء وتجاوبه:

إذن عندك ثلاثة خيارات جميلة بإلاضافة إلى عروس مثلي...

تكمل عباراتها وتنتقل إلى حديث آخر، تحاول مفاجأته ومحاصرته بالسؤال الذي ظنت أنه قد تهرَّب من الإجابة عليه..

لم تجاوبني، لماذا تأخررررررت ؟..

تمد حرف الراء وتكرره كثيراً للتأكيد على جديتها واصرارها في الحصول على إجابة مقنعة.

يعرف إنها تعشقه.. تحبه.. وتنتظره.. تنزعج لتأخره عن مواعيدهما وتخشى آلام ابتعاده عنها، وطريقتها في السؤال تفضحها. يرد على سؤالها بحنيَّة

وشاعرية:

المهم أنني قد جئتك.. ثم يضيف هامساً:

وها أنا ذا بين يديك الآن....

يعرف أنه بمثل هذه العبارات الجميلة؛ قادر على تبديد شفقتها التي تبدو ظاهرة في عينيها البريئتين..

جئتني بعد أن أوشك البرنامج على نهايته..

تقولها بدلال لا يخلو من لومٍ مُبطّن..

يدرك بأنها تخشى مغادرته السريعة مع انتهاء البرنامج، الذي شارف على الخواتيم، يفهم إحساسها، يسارع إلى تطمينها، ويقول:

سأبقى معك حتى وإن غادر الجميع..

***

استيقظ عاصم على صوت دقات المنبِّه المزعج الذي اشتراه خصيصاً لحسم قضيته مع النوم، وتحسين صورته السيئة أمام كل من قطع معهم وعداً في السابق وفشل في الإيفاء به. أزعجه الرنين المتواصل حتى كاد يضرب المنبة بقبضته ويرميه مهشماً. بدا له صوت المنبه في رنته؛ وكأنه في تحدٍ واتفاق مع شخص آخر لإغاظته. انتبه بعد معاناة كبيرة للموعد الذي ضبطه بنفسه منذ ليلة الأمس، ليتمكن من اللحاق بالبص القادم من تلك المدينة الساحلية، حاملاً إليه بعض المعلومات والمستندات المهمة.

بالأمس وصلته رسالة من رقم مجهول، أبلغه صاحبها بضرورة الذهاب لاستقبال البص القادم من ساحل البلاد عند الثانية ظهر اليوم لأنه سيجد رسالة باسمه، فيها معلومات مهمة لم يفصح صاحبها عن فحواها. بالإضافة إلى طرد مليء بمستندات ستفيده في قضيته.

لم يكن ليجتهد كثيراً في التفكير عن هذا الصديق المجهول فقد كان على ثقة بأنه تابع لفرع المؤسسة بتلك المدينة، لذا لم يشغل باله كثيراً بمعرفة الاسم أو الشخصية، كان على يقين بأن معظم العاملين بالمؤسسة قد تابعوا الأخبار ويعلمون بتفاصيل الإعلان عن صفحته الجديدة التي سينشرها يوم الأحد القادم بصحيفة (صوت الجماهير) الواسعة الانتشار. هو يدرك بانهم سيفرحون عند نجاحه في الإيقاع بالعصبة التي تعبث بتفاصيل المؤسسة، دائرة الأبالسة، ويعلم بأن المعلومات التي سترده من هناك مهمة وخطيرة، لكن بالرغم من ذلك كان يشعر بالكسل والتراخي. حاول أن يغمض عينيه من جديد لكنه طرد هذا الخاطر سريعاً بسبب منبهه الذي كان قد ترصده بالصخب والإزعاج، وأفشل عليه مخطط النوم. صحا وصمم في نفسه على الإسراع للحاق بالبص.

الساعة إذن كانت قد أعلنت الواحدة والنصف، وهذا يعني أن الموعد المعني للحاق بالبص قد تبقت له نصف ساعة فقط. تأمل عدد الساعات التي كان فيها نائماً، فوجدها كافية لمن أراد الراحة والاسترخاء، لكنه لا زال يشعر بالتعب والإرهاق. ورغم ذلك ظل المنبه يتصارخ ويقلق راحته.. جعله في حالةٍ من الصحو، لا النوم. ومن جديد أحس كأنه لم ينم كل تلك الساعات التي مضت. أحس بأن الموعد قد أتى سريعاً، لذا اقتنع بضرورة الذهاب واستلام الطرد والخطاب.

- ١٣ -

والشمس تحبو خَجِلةً، نحو تكرار عادتها اليومية بالانسحاب الوشيك من السماء؛ كان عاصم وحسام يحتلان نفس الطاولة المنزوية التي تعوّدا الجلوس عليها بمقهى (مرسى المزاج). جلسا بشوق من ذكّره المكان بانفعالات الصبا وصبوة الحنين. حكى عاصم لصديقه حسام حكاية يونس وما يملكه من معلومات، وأبلغه بفكرته التي ينوي تنفيذها بعد أن يستلم الذاكرة الخارجية التي بها المستندات والمعلومات. كشف له عن نيته الأولى بتسليم كل المستندات لمالك رفعت، الصحفي الذي ينشط في عمليات كشف الفساد والمفسدين. سرد له الجوائز التي منحتها له المؤسسات الدولية والمنظمات الحقوقية التي تهتم بالشفافية وحرية الصحافة. كان يتحدث بسعادة عن حقيقة اقتناعه بالفكرة التي طُرحت عليه، والفرصة السانحة بتوليه تحرير الصفحة الجديدة التي تتناول ملفات الفساد. وضرورة اختياره لاسم مختلف، شرح له مقترح مالك رفعت الذي طلب منه التفكير في تغيير اسم الصفحة من مسمى (تحت المجهر) إلى أي اسم آخر، لأن اسمها الحالي مطروق ومتداول بشكل واسع. وبعد أن فرغ من شرحه لكل ما سبق؛ مَدَّ له نسخة اليوم من صحيفة (صوت الجماهير) التي حملت الترويج والتبشير بالحلقة الأولى من ملفه، فتح حسام الصحيفة وبدأ يقرأ:

القراء الكرام، تبدأ صحيفتكم الأولى، ومنذ الأسبوع المقبل، برؤيتها الجديدة وسعيها الدؤوب في الكشف عن كل أولئك الذين أكلوا قوت شعبنا الأبيْ، وداسوا على كرامته وانسانيته.. أولئك الذين لا يعرفون ما هو الإنسان وكيف تبدو الإنسانية. ولا يدركون القيم النبيلة ومعاني الشرف والوطنية. سنحارب كل مَنْ غرقوا في الفساد ونكشف عن من انغمسوا فيه لدرجة لا يمكن وصفها بشيءٍ غير الجشع والطمع والفساد وقلـة الحيـاء... (قِلّـة حيـاء) ملفٌ اسبوعي يُعنى بكشف الفساد، ويطارد ملفاته أينما كانت. يعده ويُحرره لكم الصحفي *كريم الأغبش*، تطالعونه كل يوم أحد بصحيفتكم الأولى *صوت الجماهير*.

دُهش حسام بالجرأة التي امتلكها صديقه عاصم، لكن تسارع الأحداث واطلاعه على المعلومات الأخيرة جعله في حالة مواكبة واقتناع بما وصلت إليه الأمور.

كان عليهما أن ينتظرا يونس مساء ذلك اليوم، فهو من سيأتيهما بعد قليل وسيجلب معه الذاكرة الخارجية التي تحوي البيانات والرسائل والمستندات بعد أن أكد لهما بأنه يحتفظ بها في مكانٍ خفي.

سأل حسام..

ألا تتوقع أن يراوغك يونس، أو يطلب مقابلاً ماليَّاً؟..

كان نفس السؤال قد دار بذهن عاصم طوال يوم أمس. لكنه لم يشغل باله كثيراً بعد تأكده من أن يونس أعطاه كل المفاتيح للتجسس ومراقبة البريد الإلكتروني والهاتف الشخصي إن أراد ذلك، بل قام بتجريبها أمامه للتأكد من صدقه.

لا أتوقع ذلك، لعدة أسباب أهمها أنني كشفت ألاعيبه، وهو يكره المدير العام ويريد الانتقام... ولأنه ملّكني أدواته كلها، ويعلم أن ما يقدمه لي لم يعد فعله مستحيلاً.... رد عاصم وهو ما زال يتأمل الطريق.. تذكّر أنه لم يجرِّب البحث حول الرسائل بعد أن جرَّب فتح التطبيق السرّي.. أسرع بتحميله ومحاولة إجراء تجربة أولى للتأكد من أنه قادر فعلاً على اختراق الحسابات الإلكترونية والهواتف المحمولة. قرر أن يجرِّب بنفسه ليرى ما بالداخل، واستهدف في البداية بريد محمود عبد الكريم الإلكتروني، وجهازه الشخصي.

قام بفتح واجهة التطبيق، ملأ عنوان البريد، رقم الهاتف الشخصي، وضغط على علامة البحث الموجودة بأسفل الصفحة، بدأ البرنامج عملية بحثه مبرزاً شريطاً ذا لونٍ رماديٍّ، سرعان ما أخذ في التحول نحو الأسود.. تركه وذهب.. أحضر لنفسه كوباً من الشاي، ومعه صحيفة، ليبدد زمن الانتظار الذي بدا له طويلاً وأكثر من اللازم.. رجع ونظر لواجهة البرنامج وجد لونها قد تحوَّل نحو الأحمر.. وانتقل سريعاً إلى اللون الأصفر.. فالأخضر، ونجح أخيراً في فتح البريد الإلكتروني.

وجده منسقاً، دخل إلى البريد الوراد، والرسائل المرسلة، ثم لاحظ أسماء خاصة لبعض الملفات على الجانب الأيسر من الصفحة. كانت التسميات مختلفة، (حساباتي بالبنوك)، (تحويلات واردة)، (رسائل مهمة)، (شهادات بحث وعقارات)، (أسرية وعائلية)...

تذكّر أن محمود عبد الكريم كان قد سأله في إحدى المرات عن كيفية تنسيق بريده الإلكتروني، وادَّعى بأنه يحتاج للاحتفاظ ببعض مستنداته المهمة، لكنه كان يبحث فيما يبدو عن طريقة آمنة لحفظ المستندات الخطيرة، ومراجعة حساباته الخاصة ومراسلاته مع البنوك الخارجية.

أول ما أثار فضوله ولفت نظره، الملف المكتوب باسم (رسائل مهمة). فتحه فوجد به رسائل من شخصيات مختلفة. فتح أول رسالة، قرأها:

العزيز محمود..

أكملنا ما علينا فعله.. ننتظر تنفيذ وعدكم بتوريد المبلغ لحسابنا..

التوقيع : عظمة..

ضغط على الرسالة التي تليها، وجدها من نفس الشخص، تبدو مختلفةً في موضوعها:

عزيزنا محمود.. تحياتنا.. مرفق تفاصيل حساباتنا معكم.. كانت مليئة بتفاصيل كثيرة لم يقرأها كلها ونزل إلى آخر الرسالة، فإذا به أمام تفاصيل ومبالغ:

عمولاتكم بلغت: خمسمائة وثلاثون ألف دولار وقابلة للزيادة.

خصم من عمولات وتسهيلات دفعناها: خمسة وعشرون ألف دولار أيضا قابلة للزيادة.

متبقي رصيدكم الحالي: خمسمائة وخمسة ألف دولار (تجدون مستند الإيداع بالرسالة).

فتح رسالة رابعة فوجدها باسم امرأة تشكره على مساعدتها المستمرة في منحها عطاءات المؤسسة، ونجاحها في شراء معظم العقارات، والمشروعات وترجوه للمزيد من التعاون مع وعدها بحفظ الحقوق دائماً.

ثم خامسة، وسادسة، واستمر في البحث والقراءة إلى أن وجد اسمه في إحداها. كانت نفس المستندات التي رآها يوم التقى بيونس بالمطعم. خطاب موجه إلى مجلس الإدارة لصالح الموظف المثابر عاصم مامون الرشيد يمنحه فرصة دراسية بإحدى الجامعات العالمية المعروفة، بمبلغ تجاوز العشرين ألف دولار. ومستندات تثبت استلامه للمبالغ. مراسلات واردة، باسم الجامعة والسكن والتذاكر. مع توقيعات باسم كمال غريب، وصادق عبد الرحمن. فكّر في سبب احتفاظ محمود بهذه المستندات التي يمكن أن تتسبب في توريطه. لكنه انتبه إلى أنها في بريده الخاص، وقد يكون محتفظاً بها لتهديد من شاركوا فيها، إن خرجوا عن طوعه أو لزم الأمر.

لاحظ أيضا خطابات استرحام من موظفين فشلوا في سداد قروضهم لظروف مختلفة. تم التعليق عليها من قبل نفس الشخصيات، ورُفعت الخطابات إلى المدير، الذي رفعها بدوره إلى مجلس الإدارة، ووافق على إهلاكها. تفرَّس في كل الخطابات، وجدها بأسماء لم يسمع بأن من يحملونها قد أخذوا يوماً قرضاً من المؤسسة، بل كانوا جميعاً في حالة فقرٍ دائم.

ظل هو وحسام في حالة دهشة كاملة أمام ما شاهدوه. وجدوا شهادات بحث لعقارات، ومزارع، باسماء أبنائه، وبناته، وأخواته، وزوجته، وعدد من الأسماء التي لم يكن لهم علم بها.

وآخيراً وجدا رسالة منه لتماضر المغضوب عليها، كتب فيها:

بعد الذي حدث بيننا سأمنحك فرصة أخيرة.. هناك دورة تدريبية قادمة، يمكنني التصديق لك بها، بشرط موافقتك على أن نلتقي هنالك بعد انتهاء المؤتمر الذي سأشارك به في نفس الأيام بالدولة ذاتها، بعيداً عن أعين الرقباء... أنتظر ردك. ويبدو أنها لم ترد، وإلا فإن رسالتها كان يجب أن تكون موجودة مع رفيقتها.

حضر يونس إلى المقهى، وحكوا له جولتهما الإلكترونية العجيبة. قال بأنه سيسلمهم كل ما بيده ويترك لهم حُرية التصرف. وضع الذاكرة الخارجية على المنضدة، واستأذنهما في السماح له بالذهاب بسبب ظروفه ومرض والدته التي يجب أن تزور الطبيب بعد ساعة، لكن حسام لم يتركه يذهب وحيداً، وأصر على توصيله للمستشفى التي يقصدها، والاطمئنان على والدته، ذهبا معاً وتركا عاصم مع مشغولياته وأفكاره.

***

وجد عاصم نفسه في حالة استمتاع بقراءة الأسرار الإلكترونية، لا يدري لماذا تذَّكّر وداد السكرتيرة!!.. بدأ البحث عن بريدها الإلكتروني، أخرج من جيبه كرتها الشخصي، فتح البرنامج وكتب الحروف باللغة الإنجليزية. انتظر تحميل البرنامج مثل كل مرة حتى عالج عمليات بحثه المعتادة، وفتح الواجهة من داخل بريدها الإلكتروني. وجد معظم رسائله الواردة تأتي من صديقتها التي تدعى سالي جروب. فتح بعض الرسائل. في أول رسالة وجد مقاطعاً قصيرة مصورة. فتحها فإذا هي مشاهد ساخنة، ضحك من أعماقه وتحسَّر على حرمانها اللعين وقفل البريد.

تنبَّه لموعده مع رئيس تحرير صحيفة صوت الجماهير وتمليكه معلومات الصفحة.. وفجأة خطرت بذهنة فكرة ما، فقرر أن يقوم بتنفيذها قبل ملاقاته لمالك رفعت وتسليمه الحلقة الأولى..

أخرج هاتفه وفتح برنامج البريد الإلكتروني. أضاف بريد مالك رفعت وانتظر.. وفي لحظات كان يتجول بين رسائله.

كانت الرسائل كثيرة وعادية، مرّ عليها سريعاً، لم تلفت انتباهه تلك المتعلقة بحسابات الفيسبوك، وتويتر، ولينكدإن. في كل الصفحة الأولى لم يجد شيئا مُهمَّاً يرضي شغفه، لكن حالما ضغط ودخل إلى الصفحة الثانية؛ وجد بعضها قد تغيَّر إلى اللون الرمادي دلالة على أنها قد قُرِئت دون الآخريات. وانتبه سريعاً للأسماء التي وردت منها الرسائل.. رسالة من وليد عامر السالم صاحب فضيحة المليار دولار وبنات الليل. وأخرى من عثمان حسونة العكران، الذي حاول تحسين صورته بفتح بلاغ تشهير، لإسكات الأصوات الداعية إلى محاسبته. وثالثة من خالد محسن زروق ابن الوزير المشهور.. كانت كل الرسائل ذات لهجة واحدة.. تدعو للسكوت واستلام المقابل..

كانت المفاجأة صاعقة بالنسبة له. تنهَّد طويلاً وحمد الله على خطوته التي جاءت في اللحظة الأخيرة. ولولاها لما تكشفت له كل هذه الحقائق، التي كانت خافية عليه، وعلى الجميع. اتضحت له سياسة رفعت التي خلقت منه اسماً كبيراً في الوسط الصحفي والسياسي. كان دائماً ما يرمي بالطعم، دون أن يذكر الشخصية. كان يفعل ذلك ليمنح نفسه فرصة إذلال اللص، ومفاوضته على مبدأ الستر. يبلغ الضحية بأن أمر عدم فضحه لا زال ممكناً، لكنه بيده

هو، ولمصلحته الشخصية. يمسك بالمعلومة؛ ثم يقبض كل ما يطلب في مقابل صمته. كان ذكياً لدرجة أن الجميع قد صدقوا بأن إشاعة احتجابه الكثير ناتجة بسبب تضييق الحكومة والسلطات التي تحاول أن تمنع وصول كتاباته إلى القراء. إذن فقد كان ينوي خداعه هو الآخر واستلام الملفات ليفاوض بنفسه بعدها محمود وشركاءه ويقوم بتهديدهم قبل النشر..

ها هو إذن يصل من جديد إلى حقيقةٍ أخرى تستحق النشر بصفحته التي سيحررها..

***

يصل صديقه حسام فيجده في حيرة من أمره، يسأله..

ما الجديد؟

الجديد أنني سأعدِّل فكرتي..

لماذا تغيِّرها؟* تساءل حسام باستنكار ودهشة..

يطلعه على الرسائل التي وصلته من فرع المدينة الساحلية، وتلك التي وجدها بالبريد.. يتمعَّن حسام في الرسائل، ويفردها أمامه واحدة تلو الأخرى. يقتنع هو الآخر بفشل الخطة الأولى. ويتفق معه في الاتجاه نحو البحث عن خُطّةٍ بديلة..

جاهزة..

يقولها عاصم بثقة تجعل حسام يستفسر عن تلك الجاهزية التي يسمعها.. ويسأله:

وأين هي خطتك الجديدة؟

يبدأ عاصم في شرح الخطة الجديدة بالتفصيل قبل أن يشرعا في تنفيذها سريعاً.

الفصل الأخير

يسمع يونس طرقات على باب الغرفة بالمستشفى التي ترقد بها والدته نتيجة لإصابتها بالتهاب في الجهاز التنفسي. يسرع إلى فتح الباب فيجد أمامه عاصم وحسام يحملان بيديهما أكياساً من البرتقال والتفاح والعنب. يبتسم أمامهما ويسمح لهما بالدخول. يخطو عاصم في البداية ويدخل من خلفه حسام. وجه سماح يبرز مثل دائرة القمر في ليلة تمامه، يلفته جسدها الغض، وجسمها اللادن الجميل المفعم بالحيوية والأنوثة. تطل بقامتها المديدة. تبتسم مُرحبةً بهما، وتسرع لجلب الحلوى من فوق منضدة ترقد بالقرب من والدتها المريضة.

يجد عاصم نفسه متهافتاَ للحديث معها، وبلا تردد:

* كيف حالك يا سماح؟*..

بخير حال الحمدلله تصمت للحظات ثم تواصل.. وكيف حالك أنت.. تتلعثم في حديثها لبرهة ثم تتابعه مرةً أخرى.. وكيف هي أجواء العمل بالمؤسسة يا عاصم؟.. يلحظ أنها تتذكّر اسمه كما لم ينسها هو.. يستجمع تفاصيل اللحظة والموقف الذي استدعى زيارتهما الآن. يستدرك للإجابة على سؤالها:

أجواء العمل جيدة، والمؤسسة بوضع طيب.. ثم يسألها:

* كيف حال والدتك؟*..

* تحسنت كثيراً* ترد بتأدبٍ خجول، غير مصطنع، وبوجهٍ مُطْرِقٍ نحو الأرض،..

يتداخل يونس ضمن الحوار..

سماح أكثر من يتعب على راحة الوالدة يا عاصم..

تقاطع حديثه وترد بحرج وانفعال مبرر في محاولة مفضوحة لتغيير وجهة الحديث:

بارك الله فيكم، على ما جلبتموه من فواكة، ربنا يجعلها في ميزان حسناتكم..

كان حُسنها بادياً، وواضحاً، كهامة النخيل. ولُطفها الممزوج بالدلال يبدو في تبرجه نسيماً سابحاً في فضاء الغرفة. وعندما انتبه عاصم لانغماسه البرئ في حنينها ودفء صوتها؛ أحس أن وضعه قد أصبح مكشوفاً ومحْرِجاً أمام الجميع. فسارع بالاستئذان. والتفت نحو صديقه حسام، ودَّعاهما ووعدَاهما بتكرار الزيارة مرة أخرى، ثم خرجا..

قفل يونس الباب وراءهما، وقبل أن يتفوه حسام بكلمته الأولى؛ أشار إليه عاصم بإدراكه ما يفكر فيه.. وأكّـد بأنه سيشرع في التفكير الجدي في أمر الارتباط بها.

* * *

بعد أن خرج أصدقاؤها وزميلاتها؛ دعته أريج للتجول حول الفيلا التي ترى بأنها الأنسب لتضمهما بعد الزواج. قادته وراءها وعبرت به المداخل. كانت هائمة، وسابحة في أفكارها البريئة. حالمة، ومبتهجة. فرحة، وسعيدة بدنيتها التي تراها أمامها. بدأت جولتهما من الطابق الأرضي. حملته على جناح فرحتها الغارق في بحر الأشواق، ومضت به إلى مراتع الحنين. تجولت به حتى وصلا إلى الغرفة التي ستشهد ليلتهما الأولى بعد الزواج. فتحت بابها، ودخلت أمامه. دَعَتْه إلى الدخول بقدمه اليمنى. طلبت منه أن ينطق بالبسملة والحوقلة. يدِخل ويُجاملها. يتحرك وراءها بلا رغبة. يحس بالضجر، ويأمل أن

تفرغ سريعاَ من جولتها. مزاجه لا يساعده اليوم ولن يتيح له الاستمرار في المجاملة. يدرك أن أملهما في الزواج صار حلماً لا طعم له، ولا يرغب في تحقيقه. لكنها لا تدري بحقيقة الأمر، ولا تحس بحالة العداء والجفاء التي نشبت بينه ووالدها.

يترك الباب مواربا خلفه. ترجع هي بإصرار وتغلقه بهدوء. يجد نفسه منساقاً، وبرفق يسكبه حنينها، وتدلقه عواطفها الجياشة. يشعر بها - كما تمناها - كاملة الإغراء والأنوثة. كانت الغرفة منسقة وبديعة. وُضع دولابها الخشبي الضخم على الجانب الأيمن، وفي موازاته سرير مزدوج وكبير. فُردتْ عليه شراشف حريرية ذات نقوش وورود، وبألوان جذابة. والمساند الجميلة توزعت على السرير. تمَعَّن في كل ما هو موجود بالغرفة. أدهشه تناسق الألوان، رائحة البخور وعطر الندى، لمسات الفن والإبداع بالحوائط، قطع الخزف والمنحوتات الشعبية. كانت كلها تتماشى مع لون طلائها وأثاثها فصنعت جواً ورديَّاً حالماً غيّر من مزاجه الحالِك سريعاً وأدخله في أجواء لم يكن يتوقعها. أحس للحظة بأنه قد فقد السيطرة على أفكاره السلبية وتصرفاته التي كان بإمكانه إيقاف عنفوانها في السابق متى يشاء. شعر بما تحس به، وربما انتبهت هي إلى دواخله التي لم يعد يفهمها.

أصبحتْ مثله من غير إرادة. سمع أنفاسها المتلهفة، وقلبها الذي يسرع في خفقانه. أذابه هديرها الذي تجاوزت أصواته دقات بندول ساعة الحائط المعلقة، فكانت هي الشاهد الوحيد على ما حدث.

لمست يده المتعرِّقة، لتتأكد من أنها ليست في غيبوبة. تأكد هو بعد لمستها الدافئة بأنه كامل الوعي والإحساس. تذكر يونس، وسماح. أحس بقسوة آلامهما، حفزته ذكراهما لفعل شيء لا يدري كنهه. شجعته للمضي نحو انهياره الوشيك. لمح وجه والدها محمود عبد الكريم قادماً من البعيد. ثم رآه يقترب منهما أكثر وأكثر. تابعه حتى تداخل وانساب بين طيات الشراشف ومرايا الغرفة. شَعَر بأنفاسه في كل جزء من المكان. في الجدران التي من حوله، والفضاء الذي يملأ الفيلا كلها. تملكته رغبة يونس في الانتقام. انتابته حالة غير مفهومة من الصراع الوجداني الخفي، جعلته ينقاد بقوة خرافية وينساق ليهجم عليه بضراوة. تماهت صورته مع صورتها التي أمامه.. ناجته وتأوهت. بدأ من حيثما يريد هو. قبَّل شفاهها بهدوء. استسلمت طائعةً مختارة بين ذراعيه. تمرغت بأحضانه، وانتشت كما الفراشة. أخذا وقتهما كما يكون، ثم خرجا معاً بعد ارتعاشة النهاية.

* * *

الزمن يتحرك ببطء، ويمضي متثاقلاً كأنه يحسب نبضات العاملين بالمؤسسة. وحسام ينتظر ردّة الفعل لتوثيقها في توقيتها المناسب. كان حاضراً لكل تفاصيل الحدث بالمؤسسة. هو من شهد وسجل سيناريو الأحداث فيما بعد.

كان مرابطاً بها منذ الفجر، يبدو في مراقبته واهتمامه بتفاصيل الحدث كمَنْ كان ينتظر لحظة إعدام قاتل والده.

حاول التفكير في تفاصيل خطة عاصم التي قرر تنفيذها. لم يكن يعلم بسبب تخلّفه عن التفاصيل التي اتفقا على القيام بها، ومع أن اكتشافهما لحقيقة شخصية مالك رفعت جعلهما ينتبهان لعدم جدوى الخطة الأولى. لأنه كان سيستلم المستندات ويمتنع عن نشرها بالطريقة التي يريدونها. وسيسعى بعدها لمفاوضة أصحابها للحصول على مقابل نظير صمته وكتمانه ثم يضيع منهما كل شيء. إلا أنه لم يكن يعلم بتفاصيل ما سيفعله عاصم، لكنه أيقن بأن تفكيرهما في خطة بديلة كان صائباً. عندما وصل بتفكيره إلى هذه النقطة؛ ابتسم بارتياح، وتأكد من أن عاصم قرر مفاجأة الجميع بما فيهم هو نفسه.

هو يعرف صديقه جيداً. يثق به، ويدرك بأنه ليس غبياً. كان يحدثه دائماً عن زملائهما بالمؤسسة. وتناقشا حول كثيرٍ من التفاصيل التي لم تكن في حسبانه. عبَّر له عن ألمه وإحساسه بتأنيب الضمير، بسبب عدم وجود علاقة بين أريج وما حدث. كان يعدَّد له جملةً من الأسباب التي تجعله يتخلّى عن فكرة النشر بموقع جريدة (فضائح) الإلكترونية التي تقوم على التشهير، ويؤكد بأنها ستنحو بالملف باتجاه أغراضها الفضائحية كالسائد بكثير من صحف هذه الأيام، الشيء الذي لم يكن ليسعدهما.

عاصم لم يرد كل ذلك، بل كان يبحث عن شيءٍ أخر.

اقتنع حسام بوجهة نظر صديقه. وقال:

التشهير ليس حلاً مفيداً بالفعل، لكن ماذا نفعل؟.. قالها ولم يجد إجابة مقنعة للسؤال الذي قد يخطر ببال كل شخص تسوقه أفكاره إلى التساؤل حول السبب الذي منع عاصم من إبلاغ السلطات أو الجهات المسؤولة!..

كان عاصم يفكِّر في تعذيبهم جميعاً. محمود عبد الكريم، كمال غريب، عادل مرحوم، وصادق عبد الرحمن. وحتى إبراهيم وهبي. سعى لترويعهم وإذلالهم أكثر من فضحهم، وتمنى أن يرى ما حدث لكل واحد منهم. وعندما أتته اللحظة الفاصلة؛ جمع كل المستندات والمعاملات والمراسلات المالية التي تكشف عن فسادهم وأرسل إلى كل منهم نسخته التي تخصه في طرد خاص.

***

حسام، وعاصم، وجميع العاملين بالمؤسسة يعلمون بأن لا أحد يلمس البريد القادم باسم السيد المدير العام. جرت العادة بأن تظل كل الطرود الخاصة به قابعة بمكتبه حتى يأتي ويفتحها بنفسه. كان ذلك عُرْفاً وتقليداً اعتادوا عليه في المؤسسة، مثلما تعوَّدوا على عدم الكتابة باللونين الأخضر والأحمر.

عاصم يعرف كل بروتوكولاته ونفسيته. لذلك قرر أن يلعب على المكشوف.

لم يكن منشغلاً بالتفكير حول كيفية وصول الطرد إلى كل واحد منهم..!! لكنه كان على ثقة بأن كل من يفتح الطرد ستحدث له مصيبة. والذي يدركه أكثر؛ أن المدير العام سيكون وحده عند تلك اللحظة القاتلة. لذلك أوكل إلى حسام مهمة المراقبة وطالبه بالبقاء قريباً من مسرح الأحداث التي جاءت كما توقعها تماماً.

طردٌ صغير باسم محمود عبد الكريم، يحوي بعض الأوراق المختارة بعناية من الملف الذي يخص معاملاته، مع إعلانٍ غير كذوب عن صفحةٍ قادمةٍ باسم *قلة حياء*، وتنويهٍ بتاريخ نشرها بصحيفة (صوت الجماهير) المعروفة في الأسبوع القادم؛ كان كافياً ليسمع القريبون من مكتبه صرخةً مدوَّية تتبعها حشرجات مكتومة، جعلتهم يسرعون جميعاً إلى مكتبه فيجدونه واقعاً على الأرض.

رآوا بدلته الأنيقة تهتز لوحدها خلف كرسيِّه الوثير، بينما كان هو مخنوقاً يجاهد في محاولاتٍ يائسةٍ لفك ربطة عنقه من ياقة القميص..

لم يفعلوا شيئاً حياله، ويبدو أن ربطة العنق وحدها هي التي أسدلت الستار على خواتيم الحكاية.

حكى حسام لصديقه كل ذلك، وختم حديثه بقوله:

بعدها طبعاً هرعتْ كل المؤسسة لنجدته، لكنها لم تفلح في شيءٍ أكثر من إلحاقه بمستشفى الحالات الحرجة، وما يزال حتى اللحظة بغرفة العناية المركزة.

(انتهـــت في: ٣٠/١١/٢٠١٥م)